

السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1830-1519
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط
المحور الأول: أوضاع أوروبا والتحولت الكبرى
(النهضة الأوربية ، الكشوفات الجغرافية)

أ.د. عبد القادر فكاير

أولا: النهضة الأوربية:

إن كلمة (Renaissance) تعبير حديث بدأ استعماله منذ سنة 1830 ، وتدل الكلمة في معناها الضيق على حركة بعث التراث القديم وإحيائه، أي أنها تعني البعث الجديد. أما في معناها الشامل فهي تعني تحرر العقل الإنساني من قيود العصور الوسطى وشعور الفرد بحريته في التعبير عما يشعر به من أحاسيس وانفعالات. وتعد النهضة الأوربية حركة انتقالية في أوروبا بين العصور الوسطى والعصر الحديث، وقد أطلق المؤرخون هذه التسمية على الفترة التي تتوسط العصور الوسطى والعصور الحديثة التي تشمل القرنين 14 و 15 على وجه التقريب.

لقد بدأ عصر النهضة في إيطاليا في أواخر القرن الخامس عشر ، وأسباب ظهور عصر النهضة في إيطاليا أولا ثم الانتشار منها إلى بقية أنحاء أوروبا فهي عديدة نذكر منها:

1- **إيطاليا موطن الحضارة الرومانية:** شهدت هذه الامبراطورية أوج الحضارة وما مرت به من من نكبات وانتصارات، وخلفت آثار من تماثيل وقصور والوثائق والمخطوطات ، والتي عمل علماء النهضة على التنقيب عنها ، وكان الإيطاليون ينظرون إلى هذه المخلقات الحضارية على أنها دليل عظمة وتقدم تميز به أسلافهم، لذا تولد بداخلهم شعور لإحياء هذه الحضارة ولكن بشكل يتماشى مع عصرهم.

2- **الطبيعة السياسية لشبه جزيرة إيطاليا:** كانت شبه جزيرة إيطاليا تضم عدة وحدات سياسية من إمارات وجمهوريات ودوقيات (أي مدن دول) متنافسة، وقد أعطى هذا الوضع لحكام هذه الوحدات السياسية مظهر المنافسة في تشجيع العلماء والأدباء إما لتشجيع العلم لذاته، وإما لبحث عن المجد الشخصي وحث الفنانين على تخليد أسمائهم. وكانت الكنسية في روما هي الأخرى تجزل العطاء لهؤلاء الرجال.

3- الطبيعة الجغرافية لإيطاليا: تزخر إيطاليا بمناظر طبيعة خلابة ، مما أثر في أحاسيس رجالها ومبدعيها وكذلك أثرت في أعلامهم.

4- إيطاليا حلقة اتصال: كانت إيطاليا حلقة اتصال بين الشرق وأوروبا الغربية ، فكانت شارك في نقل الحملات الصليبية ، وتقوم بالتجارة مع العرب بصرف النظر عن الحروب مما ساعدها على الاستفادة من علوم العرب إلى حد بعيد ، حيث نقلت عن العرب الدراسات الفلكية والطبية والرياضيات ، إلى جانب ذلك كانت إيطاليا قريبة من القسطنطينية ، فاستفادت من العلماء الإغريق الذي كانوا يحاضرون في مدارسها وإرسال بعثاتها العلمية إلى بيزنطة للاستفادة من العلم الإغريقي.

5- احتراف إيطاليا التجارة: اشتغلت المدن الإيطالية بالتجارة ، وقد ساعد ذلك على رفاهية العيش فيها وتوافر المال الذي ساعد العلماء على البحث والتنقيب والتفرغ للعلم دون الاهتمام بالأمر الأخرى.

6- العناية بمجال التاريخ: حظي التاريخ باهتمام كبير من رجال عصر النهضة في إيطاليا حيث أن المؤرخين كانوا قديما يعتمدون على الرواة وغيرها من المصادر غير المؤكدة، أما في عصر النهضة فقد نشأت المدارس النقدية وعلى رأسها مدرسة فلورنسا ، وأنتجت هذه المدرسة 'نتاجا ضخما في المجال التاريخي ، وطبعت كتب هذا العصر بطابع تميز بتحررهم من الموضوعات الدينية والتقاليد البالية والتزموا بالموضوعية مما مهد لعلم حديث في التاريخ.

7- فن العمارة: كانت يوجد في شمال أوروبا في العصور الوسطى فن معماري لع طابع خاص يعرف بالفن القوطي الذي انتقل فيما بعد إلى إيطاليا، واستفاد الإيطاليون من هذا الفن في بناء الكنائس، إلا أنه في عصر النهضة أدمجت في فن العمارة الخصائص والرسومات الهندسية، وكانت فلورنسا هي مهد هذا التقدم ومنها انتقل إلى بقية أنحاء إيطاليا.

انتقال النهضة إلى دول أوروبا:

انتقلت النهضة العلمية إلى دول أوربية أخرى منها فرنسا وانكلترا ثم ألمانيا:
النهضة العلمية في فرنسا: بينما كانت إيطاليا تعيش مظاهر النهضة في القرن 15، كانت فرنسا تعاني من توقف الإنتاج الثقافي، وذلك بسبب الحرب بين انكلترا وفرنسا (حرب المائة سنة)، وانتهت هذه الحرب بتوحيد فرنسا، ولكن فرنسا لم تكتمل تنتهي من هذه الحرب حتى بدأت الصراعات الداخلية بها بين لويس 11 وأمراء الإقطاع. ولما غزا شارل الثامن إيطاليا ما بين 1494-1498 ، رأى بها ما لم يكن يتوقعه من النهضة والتقدم، فأراد نقل هذا التراث إلى بلاده ، ومن ثم تسربت طائفة من هذه العلوم إلى فرنسا من إيطاليا. ولكن كان هناك اختلاف واضح بين النظرة الكلاسيكية في إيطاليا عنها في فرنسا، ففي إيطاليا أرادت العقلية الإيطالية في تشرب الروح الكلاسيكية بكل محتوياتها القديمة دون إضافة أو إخراجها إلى حيز الوجود، أما النظرة الفرنسية فكانت نظرة مختلفة حيث إنهم كانوا ينظرون إلى

الكلاسيكية القديمة بكل تقدير، ولكنهم كانوا يأخذون من القديم ما يوافق أمزجتهم ويضيفون إليه تفكيرهم ونتائجهم العقلي . ونضيق أن فرنسا تفوقت في دراسة القانون الروماني القديم ، حيث استخرجوه وحلوه مع ما يتماشى مع رغبة العصر، ومن رواد هذا المجال جاك كوجاز (Jacques Cojas) الذي تفوق في تفسري القانون الروماني، وكذلك بريسون (Brisson) ذو الدراية الواسعة بمصطلحات القانون المدني.

وتختلف النهضة في فرنسا عن النهضة في إيطاليا وذلك يتجلى في الملاحظات التالية:

1- اتجهت النهضة الفنية المعمارية في فرنسا إلى تشييد المباني العامة كمجالس البلديات والقصور لإظهار جمال المعمار والبناء ، ولم تكن كإيطاليا مقصورة على بناء الكنائس والكاتدرائيات.

2- بالرغم أن النهضة الأدبية في فرنسا كانت تابعة لإيطاليا ، إلا أن الظروف البيئية المحيطة بهذه النهضة في فرنسا لم تتح لها الازدهار إلى درجة ما وصلت إليه في إيطاليا.

3- إن النهضة الأدبية والفنية في فرنسا كانت تواجه صعوبات من مختلف الطبقات، وتضع في طريقها العراقيل، حيث كان لفرنسا طابعها الوطني الذي يلقي أنصارا له كثيرون وخصوما، كذلك فإن كلية اللاهوت في السربون كانت تقاوم الدراسة الأدبية ودراسة القديم.

النهضة العلمية في انكلترا: كانت الظروف المحيطة بعصر النهضة في انكلترا أصعب منها في إيطاليا وفرنسا، ذلك أن انكلترا لم تكد تنتهي من حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا، 1337 إلى 1453 والتي هزمت فيها دخلت في حرب أهلية ، التي كانت أكثر فظاظة على انكلترا، حيث جرت حرب الوردتين الأهلية على أرض انكليزية، وقد الأذهان، ولم يهتم الانكليز بما كان يحدث في إيطاليا من تقدم علمي.

بدأت النهضة في انكلترا بعد ما استقر الحكم في يد أسرة التيودور، وقد قامت اعتماد على الذين درسوا في إيطاليا مثل وليام ليلي (William Lilly) الذي درس في روما، وويليام غروسين (William Grocyn) الذي تعلم في فلوراسنا، وتوماس ليناكرا (Thomas Linacre)، لقد اهتم هؤلاء باليونانية وكانوا أوكسفورد. وزخرت كامبردج بمجموعة من العلماء والأدباء، نذكر منهم أرزم والدي، وتلميذه ريتشارد كروك (Richard Croke)، الذي كان أستاذا للغة اليونانية، وخلفه في هذا الكرسي السير توماس سميث (Thomas Smith). وكان في جامعة كامبردج خمسة تخصصات هي: اللاهوت، القانون المدني، الطبيعة، اللغة العبرية، اللغة اليونانية. وإلى جانب التوجه الأدبي والعلمي للنهضة العلمية في انكلترا، كان فيها اتجاه الإصلاح الديني ، فقد كان أرزم وصديقه كوليت زعماء هذه الحركة، فقد كان كوليت عميدا لكاتدرائية سان بول، الذي أنشأ مدرسة سان بول التي هاجمت الكنيسة رغبة في الإصلاح. وكانت هذه المدرسة نموذجا يحتذى به للمدارس المصلحة فيما بعد.

النهضة العلمية في ألمانيا: اتجهت النهضة العلمية الألمانية اتجاها علميا ودينيا، فلم يقتنع الألمان بالتقليد ولم يقتصروا على الدراسات الإنسانية، وإنما انكبوا على دراسة العلوم

التطبيقية ، ولقد واجهت النهضة الألمانية مقاومة عنيفة من كل رجال الدين وبعض رجال العلم. وعلى عكس فرنسا فقد كانت الجامعات الألمانية ترحب بالدراسات الإنسانية ، وأدخلتها في برامجها التعليمية . وعمل رجال الدين والكنيسة على الحد من هذه الدراسات ومن انتشارها، بعدما فشلوا في منعها من دخول الجامعات الألمانية.

أهم نتائج عصر النهضة:

1- ظهور الفكر الجديد حديث التفكير والآراء، وقضي على التفكير الديني القديم ، وبدأ التفكير الحديث من حيث التجربة والتنقيب للوصول إلى الحقيقة، مثل بترارك الذي بحث في مصادر أرسطو، واطلع على كتب القدماء واعتقد في أن ضوابط التفكير لا يجب أن نركزها في الكتب فقط ولكن يجب أن نضيف إليها التجربة والفكر الحر. وكتاب "ثورة الأفلاك السماوية" لكوبرنيك البولندي، الذي توصل إلى نظرية أن الأرض تدور حول الشمس، عكس النظرية القديمة لبطليموس بأن الشمس هي التي تدور حول الأرض، نشر سنة 1543، وأهدي إلى البابا بول الرابع.

2- الاهتمام بالتربية الجسدية إلى جانب التربية الذهنية ، صاحب هذه النظرية فلترى (Feltre) الذي اهتم بالرياضة كالسباحة وركوب الخيل والتدريبات العسكرية.

3- الاهتمام بالدراسات الإغريقية واللاتينية والعبرية ، حيث رأى رجال ذلك العصر أن هذه الثقافات هي أرقى ما وصل إليه الإنسان، وأن الإنسان لن يصل إلى درجة مرموقة دون دراسة هذه الثقافات .

4- النتائج الهائلة التي خلفتها هذه الفترة في شتى الميادين العلمية من حيث المؤلفات العلمية مثال "ثورة الأفلاك السماوية" لكوبرنيك، وترجمة روكلين وارزم للعهديين القديم والجديد، وما ظهر في الميدان الفني بشتى فروع.

الصلات الثقافية بين مراكز الحضارة الإسلامية وغرب أوروبا:

1- **شبه جزيرة أيبيريا:** حكم العرب شبه جزيرة أيبيريا ما يقرب من ثمانية قرون، أصبحت خلالها قلعة علم ومنازة للحضارة ، فأصبحت مقرا للمدارس والمعاهد ودور العلم حتى أصبحت مقصد طالب العلم وحينذاك كانت قد ازدهرت بها دراسة الفلسفة والطب والرياضيات بأنواعها والأدب والشعر.

2- **صقلية:** حكمها العرب مدة تزيد عن قرنين ونصف ونقلوا إليها جوانب الحضارة الإسلامية حتى أصبحت منارة العلم وإشعاع لأوروبا، وقصدها طلاب العلم بما في ذلك الأوربيون، وبعد أن سقطت صقلية في يد النورمان لم يحاولوا إزالة الصبغة العربية التي صبغ بها العرب صقلية وإنما حافظوا عليها وعملوا على تقدمها حتى استنفذوا أغراضهم واصطبغت بالحضارة الغربية.

ظهور الدول القومية:

لقد بدأ أول ظهور للدول القومية الحديثة عند مطلع التاريخ الحديث في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر، ويرجع ذلك إلى انطلاق الفكر الإنساني والأوروبي بخاصة نحو الاهتمام بسائر الدراسات والبحوث المتعلقة بحياة الفرد من جميع النواحي، مما جعل الأوروبيين يهدفون إلى المجتمع الذي يكفل لهم الطمأنينة والاستقرار، وابتوا لا يرون ضرورة للاحتفاظ بعالم مسيحي موحد من الناحيتين السياسية والدينية.

ومن ثم، فقد رأت كل جماعة – تسكن إقليماً له حدوده الجغرافية الواضحة، وترجع في أصلها إلى جنس واحد بصفة عامة أو أجناس متقاربة، ثم يتفق أبناؤها في اللغة التي يتفاهمون بها، كما يتفقون في المصالح والأهداف القومية – أن تخلق لنفسها وحدة قومية مستقلة خاصة بها.

كل هذه الأمور دعت إلى قيام الدول القومية الحديثة، إذ رأت هذه الجماعة أنها في حاجة إلى حكم جديد يعني فيه بكل مصالحها المعيشية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وعلاقاتها السياسية كافة. وكانت فكرة الإمبراطورية أو الدولة الواسعة هي الفكرة السائدة أثناء العصور الوسطى، حيث كانت هناك إمبراطورية عظيمة الاتساع، كما كان هناك البابا وهو الزعيم الديني الكاثوليكي لغرب أوروبا.

واشتهرت العصور الوسطى بمراحل الصراع المرير بين هاتين القوتين قوة الإمبراطورية وقوة البابوية، فلم تقنع البابوية بتلك السلطة الدينية الواسعة على رعاياها المسيحيين الأوروبيين، بل أخذت تنافس الإمبراطورية في سلطاتها الزمنية. ذلك النظام السياسي لم يكن بطبيعته يخدم مصالح الشعوب الغربية المتفرقة العديدة المتباينة في أجناسها ولغاتها ومصالحها القومية، ولذلك نجد أنه عند مطلع العصور الحديثة نمت الاتجاهات القومية، ونجحت بالتالي بعض هذه الجماعات في تكوين وحدتها القومية.

وكانت البرتغال وإسبانيا أسبق تلك الوحدات السياسية، وكان إتمام الوحدة القومية لهذه الدول الثلاث يرجع إلى أسباب خاصة متعلقة بكل منها، بينما تأخرت شعوب وأقوام أخرى في تحقيق هذه الوحدة. وهذا ما جعلها تكون السبابة للقيام بحركة الكشوف الجغرافية في خارج القارة الأوروبية.

ثانياً: الكشوف الجغرافية:

تعريف الكشوف الجغرافية :

هي رحلات قام بها مجموعة من الأوروبيين لمناطق جديدة لم تكن معروفة في القرنين الخامس عشر و السادس عشر . فقد قاموا بها من أجل شراء منتجاتهم من المناطق الشرقية ، بعد أن أصبح المسلمون يطالبون الأوروبيين بدفع ضرائب عالية على بضائعهم ، لذلك قرر الأوروبيون مقاطعة مناطق التجار المسلمين ، والبحث عن طريق يوصلهم الى جزر الهند مباشرة دون الاتصال بالمسلمين، وقد بدأت البرتغال وإسبانيا في حركة الكشوفات الجغرافية أولاً .

دوافع الكشف الجغرافية الأوروبية

1- الدافع الديني: لاشك أن الدافع الديني كان له أثره الفعّال أيضًا في نشاط المغامرات الاستكشافية، فقد كان الأوروبيون -وعلى الأخص الأسبان- تصلهم معلومات عن بلاد يستطيعون جعلها ميدانًا للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية ، والتوغل فيها عن طريق الدين، وفي الوقت عينه كانت لهم أهداف انتقامية موجهة نحو المسلمين ، كما فعلت البرتغال التي جعلت شعارها في هذه المرحلة ضرب قوة المسلمين في غرب أفريقيا. وفي الوقت عينه حازت حركة الكشف الجغرافية على رعاية واهتمام البابوية، من تشجيع الملوك على دعم البحارة، ومدهم بما يحتاجونه من مؤن ورجال.

2- الدافع الاقتصادي: من أهم الدوافع التي أوحى للأوروبيين بالاتجاه نحو الكشف عن تلك البلاد المجهولة والطرق البحرية الجديدة بين أوروبا والهند، فقد كانت أوروبا في حاجة شديدة إلى البهارات والتوابل التي كانت تستورد من الشرق، لكن هذه البضاعة لا تصل إلى الأوروبيين إلا بعد أن تمر في عدة احتكارات ترفع أسعارها وتحدد كمياتها، وتجعلها في بعض الأحيان نادرة، فهم-أي الأوروبيين- يدفعون رسومًا جمركية فادحة يفرضها حكام مصر والشام، بالإضافة إلى احتكار تجار جمهورية البندقية نقل تلك البضائع من الموانئ السورية والمصرية إلى أوروبا.

لذلك سعت الدول الأوروبية إلى إيجاد طرق ووسائل جديدة للتجارة ، لا تخضع للسيطرة العربية ، وذلك لتأمين تجارتهم ، والحصول على البضائع بأثمان منخفضة وبكميات كبيرة، وكذلك وهو الأهم منع استفادة البلاد العربية من مرور التجارة عبر أراضيها.

3- الدافع السياسي: وهي أطماع الدول الأوروبية في الحصول على دول جديدة ، واكتشاف مستعمرات من أجل زيادة نفوذها الاستعماري وممتلكاتها . وكان الغزو البرتغالي لمدينة سبته سنة 1415، الخطوة الأولى في طريق اكتشاف جغرافية العالم، والخطوة الأولى في سياسة البرتغال الاستعمارية.

وخلاصة القول إن الكشف الجغرافي لم يكن هدفا في حد ذاته وإنما جاء نتيجة أغراض تطلعت إليها دول غرب أوروبا وخاصة البرتغال وإسبانيا ، تهدف إلى مواصلة الحروب الصليبية ضد المسلمين وإخضاعهم، إضافة إلى تأمين تجارة التوابل والبحث عن الذهب. وهكذا امتزج بالروح الصليبية عامل إقتصادي. وامتزجت الدوافع الدينية مع الدوافع الإقتصادية. لقد كان اكتشاف أمريكا ابتداء من سنة 1492، واكتشاف الطريق البحري حول رجاء الصالح سنة 1498، نتائج مهمة في تاريخ أوروبا الحديثة وتاريخ العالم الحديث.

1- حركة الكشف البرتغالية:

تعتبر البرتغال أول دولة أوروبية بدأت حركة الكشف الجغرافية ، وحققت نتائج هامة على هذا الصعيد، وقد ساعدها على النجاح في هذا الأمر مجموعة من العوامل من أهمها، وجود السفن المتطورة، وجود أجهزة حديثة مثل البوصلة، زيادة الاهتمام بعلم

الجغرافية والاستفادة من كل تراث المسلمين سواء على صعيد الكتب الجغرافية والخرائط. لقد حظيت فكرة الكشف الجغرافي بتأييد الأمير هنري الملاح (1394-1460) الابن الثالث لملك البرتغال جواو الأول، وكان هنري مسيحياً متحمساً لنشر المسيحية، واهتم بالجغرافية والفلك وتطوير السفن، بدأ عمله بتأسيس أكاديمية بحرية ومرصد، وفي الوقت نفسه جمع عدداً من علماء الجغرافيا، ومجموعة من الخرائط المتوفرة في عصره. واستولى الأمير هنري على مدينة سبته في المغرب سنة 1415، وعينه أبوه حاكماً عليها، وحاول الاستيلاء على مدينة طنجة، لكنه فشل بسبب دفاع المجاهدين عنها، وبعد ذلك توجه للشواطئ الأطلسية، وسيطر على المناطق الواقعة بين نهر السنغال وغانا، واهتم بنشر المسيحية هناك، ولتمويل مشروعاته الاستعمارية عمل على التجارة بالرقيق الأفارقة، وكانت معلومات الأوربيين عن ساحل إفريقيا الغربي تقف عند رأس نان (Cap Nan).

واستطاع البرتغاليون أن يتقدموا على طول الساحل الإفريقي نحو الجنوب حتى وصلوا إلى رأس بوجادور (Cap Bajador)، حيث شرعوا يرتادون المنطقة الصحراوية، ثم واصل البرتغاليون حركة الكشف حتى وصلوا إلى الرأس الأبيض (Cap Blanco)، ثم تجاوزوه إلى مصب نهر السنغال، ثم تبع ذلك اكتشاف الرأس الأخضر (Cap Verde). ومع ظهور شخصية كادا مستو (Cada-Mosto) الإيطالي الأصل، الذي أسندت إليه مهمة مواصلة حركة الكشف وتنظيم التجارة مع المناطق المكتشفة، فقد وصل إلى رأس روكسو (Cap Roxo)، ومنها إلى سيراليون التي تعد أقصى ما وصلت إليه حركة الكشف البرتغالية في عهد الأمير هنري الملاح. وبوفاة هنري الملاح عام 1460 توقفت القوة الدافعة لحركة الكشف الجغرافي لفترة تزيد عن 40 سنة.

وتمكن البرتغاليون بعد هنري الملاح من الوصول إلى مصب نهر الكونجو، وأصبحوا يحتكرون الملاحة على الساحل الإفريقي الغربي، ولم يُسمح للآخرين بالملاحة في المنطقة إلا بإذن البرتغاليين، لكن تعطلت جهود البرتغاليين في الكشف الجغرافية بسبب قيام الحرب بين الأسبان والبرتغاليين بين عامي 1475 إلى 1479، وكذلك ما حدث من اضطرابات داخلية أوقفت الحملات الكشفية، لكن البرتغاليين عادوا للكشف الجغرافية عندما أرسل الملك جواو الثاني سلسلة من البعثات الكشفية منها رحلة ديبغو غاو الذي قام بوضع أعمدة حجرية على السواحل التي تم اكتشافها في إفريقيا، فقد وضع أولها عند مصب نهر الكونغو عام 1483، والثاني وضعه عند دائرة جنوب خط الاستواء. وفي سنة 1488 بارتولوميو دياز (Bartholomeu Diaz) الوصول إلى رأس الرجاء الصالح، ولهذا أطلق الملك على الخليج "رأس الرجاء الصالح"، لأنه بعث الأمل في إمكانية الوصول إلى الهند. وتمكن فاسكو دي غاما من الدوران حول جنوبي إفريقيا سنة 1497 ووصل إلى ساحلها الشرقي قرب "موزمبيق"، وهناك تعرف إلى الملاح العربي "أحمد بن ماجد" الذي أرشده إلى طريق الهند، وصل فاسكو داجاما إلى الهند 1498 وعاد سنة 1499 إلى بلاده، وسفنه محملة بالتوابل الشرقية، وبذلك تحقق لبرتغال كشف طريق بحري مباشر إلى الهند، وكان هذا

الكشف ضربة اقتصادية للأمة الإسلامي؛ خصوصاً مصر المملوكية، وللمراكز التجارية في حوض المتوسط مثل المدن الإيطالية. ومنذ ذلك التاريخ أخذ البرتغاليون يتاجرون مباشرة مع الشرق دون وسيط. ومن ثم توصلت أوربا إلى فتح طريق الهند.

2- حركة الكشوف الإسبانية:

تختلف حركة الكشوف الإسبانية عن حركة الكشوف البرتغالية. فحركة الكشوف البرتغالية قامت بها البرتغال حكومة وشعباً، أما حركة الكشوف الإسبانية فقد قام بها في البداية مجموعة من المغامرين، في حين أن الهيئات الإسبانية الرسمية اتخذت موقفاً معارضاً، ومن ثم غير مشجع. وفي حين أن حركة الكشوف البرتغالية قد اتجهت نحو الغرب للوصول إلى الهند، فإن الكشوف الإسبانية قد اتجهت نحو الغرب للوصول إلى الشرق تحقيقاً لكروية الأرض.

يعد كريستوف كولومبس (1451-1506) رائد الكشوف الإسبانية، من أصول إيطالية (جنوة)، كان يؤمن بكروية الأرض وبإمكانه الوصول إلى الشرق عن طريق الغرب. بدأ رحلته من ميناء بالوس (Palos) في غرب إسبانيا يوم 3 أوت 1492، وبعد عدة أسابيع وصل إلى جزيرة غواناهاني، إحدى جزر الباهاماس، ثم أبحر إلى كوبا وهايتي، واعتقد أنه وصل إلى جزر الهند الشرقية. وعاد كولومبس في مارس 1493. ثم قام بثلاث رحلات أخرى في سنوات: 1494، 1498، 1502. اكتشف خلالها الساحل الرئيسي من هندوراس إلى فنزويلا. ومات في سنة 1506، دون أن يعلم أنه اكتشف قارة جديدة.

وقام مغامر إيطالي آخر من فلورنسا وهو أمريغو فيسبوتشي (Amerigo Vespucci) باكتشاف معظم ساحل أمريكا الجنوبية في الفترة من 1499 إلى سن 1501. وكتب في سنة 1503 مقالا ادعى فيه أنه اكتشف العالم الجديد، وأثبت أن الأقاليم التي اكتشفها ليست آسيا، بل أقاليم جديدة لا علاقة لها بآسيا، وقد أطلق اسمه على أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية.

وفي سبتمبر 1519 أبحر فرديناند ماجلان (F. Magellan)، وهو برتغالي من ميناء سان لوكار (San Lucar) في إسبانيا فعبر الأطلسي وسار جنوباً بمحاذاة الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية حتى وصل إلى نهايتها جنوباً، ووجد مضيقاً عرف فيما بعد باسمه (مضيق ماجلان)، فعبره إلى المحيط الهادي. وفي مارس 1520 وصل إلى جزر الفيليبين. وفي إحدى هذه الجزر قتل ماجلان في اشتباك مع سكانها. ثم واصل أتباعه الرحلة إلى إسبانيا عبر المحيط الهندي، وطريق رأس الرجاء الصالح حتى وصلوا إلى إسبيلية في سبتمبر 1522. وقد برهنت هذه الرحلة أن الأرض كروية.

3- حركة الكشوف الإنكليزية والفرنسية:

أول محاولة استكشافية حدثت في سنة 1497 عندما أبحر جون كابوت (J.Cabot) من ميناء بريستول عبر المحيط الأطلسي للوصول إلى الهند من خلال طريق آخر، إلا أنه وصل إلى شواطئ أمريكا الشمالية عند جزيرة نيوفاوند لاند، غير أن أمله في الوصول إلى الشرق

لم يتحقق. وفي السنة التالية قام كابوت برحلة ثانية اكتشف فيها الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية. ونتج عن ذلك تمهيد الطريق لاستعمار بريطانيا لجزء كبير من العالم الجديد. أما الكشوف الجغرافية الفرنسية فقد بدأت حينما شرع الملاح الفرنسي جاك كارتيه (J. Cartier) في سنة 1524 في القيام برحلات بحرية عبر المحيط الأطلسي، واستطاع أن يصل إلى شواطئ كندا، وبعد كارتيه اهتم الفرنسيون باكتشاف العالم الجديد. وانتهى الأمر بالسيطرة الفرنسية على كندا وحوض نهر الميسيسيبي، مما أدى إلى الاصطدام مع الانكليز في سنة 1754. وأدت حركة الكشوف الفرنسية في العالم الجديد إلى احتكار الفرنسيين لتجارة الصيد والفراء في مناطق كندا. كما أدت إلى تنافس استعماري في أمريكا الشمالية مع الانكليز من أجل السيطرة والسيادة في العالم الجديد.

السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1830-1519

المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

المحور الثاني: أوضاع بلدان المغرب أواخر القرن 15 وأوائل السادس عشر.

أ.د. عبد القادر فكاير

أولاً: الأوضاع في المغرب الأوسط (الجزائر):

لقد تميزت الأوضاع في الجزائر ، خلال القرن الخامس عشر بالاضطراب السياسية والاجتماعية ، وبالغموض أحيانا . فقد كانت الحدود السياسية للبلاد في ذلك العهد غير ثابتة، فكان جزءا كبيرا من شرق الجزائر الحالية وجنوبها الشرقي تحت نفوذ الدولة الحفصية ، الذي كان يشمل قسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت . وكانت حدود الدولة الزيانية تمتد من بجاية والزاب وورقلة شرقا إلى نهر ملوية غربا. لقد ساهمت في تلك الاضطرابات عوامل عديدة ، نذكر منها ضعف الملوك ، والتطاحن العائلي في الأسر الحاكمة سواء في تلمسان أو في بجاية ، من أجل الفوز بالحكم . فكان الخصام بينهم قد دفع ببعضهم إلى الاستجارة الأنصار لمحاربة السلطان القائم ، فكان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم ، كما كان الأبناء يحاربون بعضهم بعضا لاقتسام ملك أبيهم استغلت بعض القبائل - التي كانت تحضى بشبه استقلال في أراضيها - تلك الأوضاع ، فكلما شعرت بضعف الملوك ؛ زادت من حدة عصيانها وتمردتها وتحديها للسلطة القائمة ، فلم يكن يعينها سوى مصالح القبيلة. إلى جانب ذلك ، كان المغرب الأوسط واقعا في الوسط بين تهديدات المرينيين من الغرب، والحفصيين من الشرق . سعت كل بسط نفوذها على هاته المنطقة.

فعندما تعرضت الجزائر للاحتلال الأسبان في بداية القرن السادس عشر ؛ كانت مجزأة إلى حوالي خمسة عشر كيانا، تهيمن عليها القبائل . فكانت قبيلتا سويد وبني عامر تسيطران على معظم سهول وهران ، وكان آل المقراني يهيمنون على منطق القبائل الصغرى (وادي بجاية) حيث كانت قاعدة إمارتهم قلعة بني عباس ، تحولت إلى مجانية والقبائل الكبرى ، تحت تصرف آل ابن القاضي ، ومقر إمارتهم جبل كوكو . أما كدينة الجزائر وسهول متيجة فكانت منذ القرن الرابع عشر تحت سلطة الثعالبة تتعرض لنفوذ الزيانيين تارة ، ولملوك بني حفص تارة أخرى ، إلى أن استقلت بأمرها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فأصبحت أشبه ما يكون بجمهورية يديرها مجلسا مؤلفا من أعيان المدينة تحت سلطة الثعالبة ، كان الشيخ عبد الرحمن الثعالبي أحد رجال حكمها⁽³⁾. وكانت كل من قبائل الداوودة والأحرار وسد ويكش وبني تيقرين تهيمن على ناحية لا تتألفها في تصرفاتها أحكام الملوك.

لقد تعرض كثير من الفقهاء إلى سلوكات هؤلاء القبائل وتصرفاتهم مع الحكام، لعل من أشهرهم صاحب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة عند التعرض لبعض الأسئلة

المتعلقة بتمرد تلك القبائل حيث قال: ((وسئل الحفيد سيدي محمد العقباني عن هؤلاء الأعراب المتغلبين على البلاد لضعف السلطنة أحيانا يكونون خدما للسلطان ، وتارة يكونون محالفين على السلطان كما يفعل عرب بلادنا مثل بني عامر، وبني سويد يعمد أحدهم إلى تولية قاض في وطنه (أي إقطاعه) بلا أمر الإمام فيقض، هل تصح توليته وتنفيذ أحكامه)).

لقد أدى ذلك الوضع إلى انتشار عقيدة المرابطية والزوايا والحركة الصوفية ، فقد أدى الضعف السياسي بالناس إلى الإقبال على الانخراط في الزوايا والرباطات يتناقلون أخبار الأولياء وكراتهم . كما كان هؤلاء المتصوفة يحكمون التنافس في قضاياهم . من أهم الزوايا التي تكونت بالجزائر في ذلك العهد ، زاوية الثعالبي في مدينة الجزائر ، وزاوية الملازية في قسنطينة ، وزاوية السنوسي بتلمسان ، وضريح محمد الهواري في وهران . وكان لتلك الزوايا دورا في النشاط الديني والسياسي . وقد اعتبر الصليبيون الجدد الذين ظهروا في شبه جزيرة أيبيريا ، أن تلك الوضعية المتدهورة التي عرفتها البلاد المغربية بما فيها أرض الجزائر ، فرصة مناسبة لتوسيع نطاق نفوذهم.

للتعرف أكثر على الأوضاع في المغرب الأوسط يجدر بنا التطرق إلى أكبر الوحدات السياسية التي كانت قائمة خلال القرن 15 ، وهما الدولة الزيانية ، ومملكة بجاية.

1 - الدولة الزيانية بين الخلافات الداخلية والتهديدات المرينية والحفصية :

كانت الدولة الزيانية خلال القرن الخامس عشر تتميز بالتناحر بين أفراد الأسرة الحاكمة ، أو وقوعها تحت التأثيرات المرينية أو الحفصية نظرا لموقعها الجغرافي بين المملكتين السابقتين . فقد ووجد ملوك تونس وكذلك ملوك بني مرين في تلمسان الظروف المناسبة لزرع الفتن ، فقد اكتفوا في بعض الأحيان بتأييد الطامعين من أفراد العائلة الحاكمة في العرش ، فيدفعونهم إلى الثورة ضد من هو في العرش . فعلى سبيل المثال استجار أبو زيان محمد بحكومة تونس ، فجاء حاكم تونس مغيرا على مدينة الجزائر ومنتيجة وتونس ، ومليانة وغيرها فاحتلها في سنة 1438 . وبهذه الصفة وغيرها كان بعض ملوك تلمسان في القرن الخامس عشر ، وحتى بقية عمر الدولة خلال القرن السادس عشر لا يبقون في الحكم سوى مدة قصيرة لا تتجاوز بضعة أشهر في بعض الأحيان ، وقليل منهم من حكم لسنوات عديدة.

وإذا كان أبو العباس العاقل قد استمر في الملك مدة قياسية بالمقارنة مع من سبقه من الملوك أو الذين جاءوا بعده ، فإن عهده هو الآخر لم ينج من الفتن التي أثارها بعض القبائل أو بعض أفراد الأسرة المالكة ، نذكر منها الثورة التي قام بها أحمد بن الناصر بن المولى أبو حمو خلال سنة 1446 ، وانتهت حركته بالقتل . وقام أمير آخر وهو محمد بن محمد بن أبي ثابت الملقب بالمتوكل على الله بثورة أخرى ، وتمكن من الإطاحة بعم أبيه الملك أبو العباس أحمد ، سنة 866 هجرية / الموافق لسنة 1462 م . وبعد ذلك أبعث إلى الأندلس حيث سعى هناك إلى تكوين جيش عاد به إلى تلمسان ، فحاصرها لمدة أسبوعين ، لكنه لم يتمكن من فتحها ، فقتل في معركة وقعت بينه وبين جيش المتوكل في أوت سنة 1463 .

غير أن أهم الأعمال التي قام بها المتوكل هم توحيد كلمة الرعية ، بعد أن أخضع لسلطته العرب وجميع المخالفين له ، كما غزت في عهده سفنه السواحل الإيطالية والأسبانية انتقاما لما حل بمسلمي صقلية والأندلس . كما عمل على حماية ثغر هنين من اعتداءات

النصارى ، وسعى المتوكل إلى المحافظة على استقلال مملكته ، ففي سنة 1463 أعلن عن رفضه الدعوة للحفصيين وطرد ولاتهم من أعمالها . لكن تواطؤ بعض القبائل مثل بني سويد مع الحفصيين جعلت السلطان الحفصي يتحرك بجيوشه إلى تلمسان ، فحاصرها وضرب أسوارها ، فلم يجد التوكل بدا من تجديد البيعة للحفصيين ، عندئذ رجع الملك الحفصي إلى تونس وذلك في سنة 1467 . كان ذلك آخر تدخل حفصي في مملكة بني زيان.

وبعد المتوكل عرفت الدولة الزيانية فترة من الضعف ، حيث تجددت الفتن العائلية على الحكم ، فبعد وفاة المتوكل سنة 1485 ، خلفه ابنه أبو تاشفين ، وبعد أربعين سنة من الحكم خلعه أخوه أبو عبد الله محمد الثابتي ، الذي تميز عهده بالاضطرابات ، حيث أخذت بعض المدن تستقل بأمرها مثل تنس والجزائر ، كما أخذت بعض القبائل تنظم إلى أعدائه كلما هاجموا أراضي المملكة.

ولعل من أهم الأخطار التي تعرضت لها المملكة هو التحرش الأسباني الذي شرع. فبعد أن استولى الأسبان على مملكة غرناطة في سنة 1492 ، تزايد عدد المهاجرين الأندلسيين إلى السواحل المغرب الأوسط ، كان من بينهم ملك غرناطة أبو عبد الله الزغل ، الذي استقبله الملك الزياني أبو عبد الله محمد الثابتي بحفاوة في تلمسان .

2 - مملكة بجاية (الحفصية) :

إن أول ما وقع من الأراضي الجزائرية تحت سلطة الدولة الحفصية ، ولايتا قسنطينة وبجاية ، عندما زحف عليهما أبو زكرياء الأول الحفصي سنة 1230م ، . ونظرا للأهمية الاستراتيجية لثغر بجاية ، عين السلطان الحفصي ابنه الأمير أبو يحيى أميراً عليها ، وعين ابن النعمان من هنتاتة على قسنطينة ومع مرور السنوات أصبحت بجاية تلعب دوراً أساسياً في تدعيم ومساندة حاضرة الحفصيين في توسعاتهم نحو الجهات الغربية ، أو لشد أزر تونس أما التهديدات الصليبية .

وقد امتد نفوذ الحفصيين في المناطق الشرقية للجزائر حتى أصبح يضم إلى جانب بجاية وقسنطينة ؛ كل من عنابة وبسكرة وتقرت ، فأصبحت بجاية تعد عاصمة هذا الإقليم . غير أن الاضطرابات التي حدثت بين الأمراء ، آل بها إلى الانسلاخ عن تونس ، ففي سنة 1287 انقسمت الدولة الحفصية على نفسها ، حيث انتصب أبو حفص بن أبي زكريا بحاضرة تونس ، واستقل بالناحية الغربية وعاصمتها بجاية أبو زكريا بن أبي اسحاق ، وذلك للتنافس الذي كان بين الرجلين ، لتصبح مملكة مستقلة.

وقد عرفت بجاية في بعض أوقاتها استقراراً وازدهاراً أدى إلى توسيع رقعتها الجغرافية ، حيث امتدت حدودها حتى منطقة الجريد التونسي ، وكان ذلك بسبب تحالف القبائل العربية مع أمير بجاية ، مثل العمل أقدم عليه الزاب ، المنصور بن مزني عندما أعلن انفصاله عن السلطة الحفصية في تونس سنة 1294 وانضمامه بإقليمه الواسع إلى أمير بجاية أبي زكريا . ولما أصبحت تلك القبائل تشكل خطراً على استقرار الأوضاع في الأقاليم الشرقية للمملكة الحفصية ، كانت في بعض الأحيان بايعاز من صاحب بجاية ، لجأ السلطان الحفصي

أبو عصيدة ، إلى الاستنجد ببني مريم من أجل التضييق على البجائيين . عندئذ قام السلطان أبو يعقوب المريني بفرض حصار على بجاية لعدة أيام ، لكنه لم يتمكن من إخضاعها لنفوذه.

عرف الحفصيون خلال هذا القرن أزمت عديدة كان مصدرها تضافر جهود القبائل العربية مثل بني سالم والذواودة وعبد الوادي . فقد كان أصحاب تلمسان يأملون في ضم بجاية إلى سلطتهم ، وهذا ما جعل السلطان الحفصي أبو يحيى أبو بكر يستغيث ببني مريم ، فجهز السلطان أبو الحسن المريني أسطولاً وبعث به إلى حليفه ببجاية ونهض مع قوات أبي يحيى لغزو مدينة تيكلالت . فاستولى عليها ثم خربها . ولما توفي أبو يحيى سنة 1346م تآزمت الأمور الداخلية من جديد ، جعلت أبو حسن المريني ، يغزو قسنطينة وبجاية ثم دخل تونس في السنة الموالية (1347) ، لكن سلطته عليهم لم تستمر طويلاً ، إذ تألبت عليه القبائل وهزمتها في القيروان سنة 1384.

وكان لاستمرار الخلافات العائلية ، سببا في قيام المرينيين من جديد بغزو قسنطينة وعنابة سنة 1357 ، لكن نفوذهم بها لم يدم طويلاً . وفي عهد السلطان أبي العباس الذي كان أميراً على قسنطينة ، وقبل دخوله إلى تونس سنة 1370 تمكن من أخذ بجاية وتدلّس وعنابة سنة 1366 وذلك بإعانة من الذواودة .

وتوجه السلطان أبو فارس الحفصي (1394 – 1433) نحو المناطق الغربية للمملكة ، الواقعة إلى الغرب من وادي ريغ التي كانت خارجة عن سلطة الحفصيين بما في ذلك بسكرة التي كانت تحت سلطة أمراء عائلة بني مزني ، فاحتلها وكذلك الواحات المجاورة لها وذلك في سنة 1401 . وفي نهاية عام 1408 ، وبعد هروب الأمير عبد الله من عنابة ذهب ليبحث له عن ملجأ في المغرب ، وعاد من هناك على رأس قوات مرينية ، دعمت في الطريق ببعض رجال القبائل العربية ، ثم احتل بجاية . إثر ذلك خرج إليه السلطان الحفصي وتمكن من قتله إثر معركة غير متكافئة واحتل بجاية مرة أخرى في سنة 1409 ثم عين عليها ابن أخيه أبو العباس.

لقد ظلت بجاية والأقاليم التابعة لها تحت السلطة الحفصية في تونس من سنة 1366 إلى غاية سنة 1435 ، وما أن تولى أبو عمر عثمان الحكم سنة 1435 حتى أعلن عمه أبو الحسن حاكم بجاية استقلاله ، وكان مدعوماً من طرف شيوخ أولاد أبو الليل وعلى رأسهم عيسى بن محمد وكذلك من طرف الذواودة . ففي بداية سنة 1436 توجه صاحب بجاية إلى قسنطينة بهدف احتلالها فحاصرها لمدة شهر ، غير أن حاميتها أجبرته على رفع الحصار والتوجه إلى تونس العاصمة . ولما علم أبو عمر بالأمر خرج إليه على رأس قوات معتبرة وتمكن من هزيمه في معركة وادي سيراو وذلك في 6 أكتوبر 1436 ، ففر أبو الحسن مع بعض فرسانه إلى بجاية ، بعد أن انفض عنه أولاد أبو الليل .

لقد ظن أبو عمر أن انفضاض الأعراب من حول عمه يسهل له مهاجمة بجاية واحتلالها ، فخرج إليها في سنة 1437 ، لكنه لم يتمكن من بلوغها بسبب اصطدامه بأنصار أبي الحسن الذين اعترضوا طريقه ، وأضعفوا قواته ، عندئذ اضطر إلى العودة إلى تونس . وبعد سنتين قام بحملة جديدة على بجاية ، فدخلها بعد أن كان أبو الحسن قد أخلاها ، فعفى عن سكانها وعين على رأسها ابن عمه عبد المؤمن بن أبي العباس أحمد ، ثم قفل راجعاً إلى

تونس. ولم يكد السلطان أن يدخل تونس حتى ظهر أو الحسن من جديد في جبال القبائل ، فلم يتوقف عن مضايقة حاكم بجاية واستدراج حاكمها إلى خارج المدينة ، وفي إحدى خرجاته قتل من طرف بني سيلين في ماي 1442 ، وخلفه في الحكم أخاه أبو محمد عبد المالك . وظلت الأوضاع غير مستقرة في بجاية ونواحيها ، فقد بقي أبو الحسن يتحين الفرص لاسترجاع بجاية إلى أن تمكن من دخولها في مارس 1446 حيث هاجمها وقتل قائدها أحمد بن بشير ، لكنه لم يستقر بها سوى ثلاثة أسابيع فقط ، حيث خرج إليه أبو عثمان من جديد إلى جانب القائد نبيل من قسنطينة ، وتمكن هذا الأخير من دخول بجاية ، بعد أن غادرها أبو الحسن واعتصم في الجبال ، وعين الملك الحفصي القائد محمد بن فرح على بجاية .

وقامت في توغرت ثورة أخرى تزعمها أمير من عائلة بني جلاب يدعى يوسف بن حسن الذي أعلن استقلاله ، فخرج إليه السلطان في سنة 1449 ، واقتحم المدينة وبعد حصار طويل أسر الأمير ، وعين على رأس قيادة منطقة وادي ريغ أحد القادة الذي كان مواليا لتونس.

وفي سنة 1452 أعاد أبو الحسن حصار بجاية ، وعندما وصلت النجدة من ابن عمر عثمان إلى بجاية ، تأمر عليه بنو سيلين ولا سيما سعيد بن عبد الرحمن بن صخر وصهره محمد بن سعيد ، فألقيا عليه القبض عندما نزل عندهما ، ثم اتصلا بصاحب قسنطينة ، الذي أرسل بدوره الخبر إلى السلطان ، فاستبشر خيرا ، وبعث جيشا لنقله إليه ، كان يقوده شيخ الموحدين محمد بن أبي هلال ، وفي طريقهم به إلى تونس قتلوه بحجة خوفهم من أن يفلته العرب من أيديهم ، وأرسل رأسه إلى السلطان وبذلك انتهت ثورة أبو الحسن التي استمرت لمدة طويلة. بعدها عين القائد منصور حاكما على بجاية ، بينما خلفه ابنه فرح على رأس قسنطينة ، غير أن أهالي المدينة حاولوا التمرد على القائد الجديد ، وتطلعوا إلى مبايعة إبي بكر بن عبد المؤمن الحفصي ، فأمر السلطان بإلقاء القبض على هذا الأخير والذي تم قرب الميلة ، بعدئذ عين على رأس بجاية أبا فارس عبد العزيز .

لقد ظلت المنطقة مسرحا للعديد من الاضطرابات سواء في بجاية أو قسنطينة أوفي توغرت، وكذلك ورقلة ووادي ميزاب. ولما أحس أبو عمر بميل سكان تلك الجهات إلى التمرد، خرج في صيف سنة 1465 في حملة إلى وادي ريغ، فاحتل توغرت، وهدم تحصيناتها، ثم دخل إلى ورقلة ، حيث تلقى التأييد من قبل سكان الصحراء بما. غير أن الضعف الذي أصاب الحفصيين خلال السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، جعل القبائل تلعب دورا في قيادة الأمور في الجهات التي كانت تابعة لها . ففي قسنطينة مثلا إذا كان ممثل السلطان هو المسؤول الرسمي؛ فإنه كان للذواودة وإلى جانبهم أولاد سلامة، وعائلات أخرى مثل عبد المؤمن، وبني باديس، وابن الفقون، كلمة في تسيير شؤون المنطقة.

ثانيا: ضعف الدولة المرينية:

منذ عان 1358 بدأت الدولة المرينية تنهار سريعا بتولي الحكم سلاطين دون سن الرشد ما بين (1358-1374) و (1393-1458)، كانوا بلا رأي ، لقد وضع هؤلاء تحت وصاية أقربائهم من الوطاسيين ، كما قا أصحاب غرناطة بتولي دور الوصاية (1373-1393) ، أخر السلاطين هو عبد الحق بن عثمان (1420-1465) استطاع أن يتخلص من أقرائه الوطاسيين بعد أن أقام لهم مذبحه كبيرة 1458، ولم يدم الأمر على حاله وقام سكان فاس بثورة على المرينيين ثم صار أمر المغرب بعد في أيدي الوطاسيين.

لقد ساهمت عدة عوامل في ضعف الدولة المرينية الداخلية وخارجية وبالتالي سقوطها وهي كما يلي:

1- **النزاع بين الأمراء المرينيين على العرش:** بدأ هذا النزاع بتمرد أبي عنان على سلطة والده أبي الحسن ، إن هذه الثورة من ولد على والده كانت أسوأ مثل ضرب لأدعياء العرش والثوار على الدولة ، وبما أنه لم يكن لنبي مرين شأن سابقهم أيضا نظام قار لولاية العهد ، فقد كان كل ملك يتولى العرش يخشى على ملكه من ثورات يقوم بها أمراء الأسرة المالكة، فينفي أخطرهم شأنًا إلى الأندلس ، وتكون تلك أسوأ وسيلة للمحافظة على وحدة العرش، حيث ينتهز بني الأحمر أقل فرصة ضعف من بين مرين ليسيظروا عليهم بعض من تحت أيديهم من أمراء بني مرين، وهكذا أمد أبو الحجاج أبا الفضل بجيش يحارب به أخاه أبا عنان الذي كان قد نفته إلى الأندلس ، وقد يلجأ الأمراء إلى بني عبد الواد أو بني حفص أو ملوك قشتالة ، فإن أبا سالم دخل المغرب مخفورا بأسطول ملك قشتالة والتجأ الأمير عبد الحليم إلى السلطان أبي حمو الذي ساعده على دخول سجلماسة في عهد أبي زيان .

2- **ضعف شخصية الملوك بعد أبي عنان (1348-1358م):** إذا استثنينا ملكين بدرت منهما محاولات لإعادة مجد الدولة وهما أبو سالم وأبو فارس، وكلاهما ولي الملك بعد أبي عنان، فإن باقي الملوك المتأخرين كانوا يتفاوضون ضعفا من حيث صلاحيتهم لتحمل أعباء الدولة، فقد بويع أبو بكر السعيد صبيا صغيرا ، وكان أبو عمر تاشفين ضعيف العقل، أما أبو زيان محمد فلم يكن له نفوذ يذكر ، وبويع أبو زيان الثاني طفلا لم يحتلم بعد، وأدى أبو سعيد عثمان طاعته لبني أبي حفص، وذبح عبد الحق وزراءه الوطاسيين لينصب عوضهم حكومة من اليهود.

3- **استبداد الوزراء وفساد الحكومة:** من أخطر العوامل الداخلية التي أدت إلى سقوط الدولة المرينية ، فطالما كانت السلطة الأساسية بيد الملوك والوزراء الصالحين المتعاونين مع الملوك على خير البلاد . أما والسلطة قد تحولت كلها أو معظمها إلى أيدي وزراء أغلبهم ينظر إلى الملوك نظرة الأوصياء الجائرين إلى اليتامى المحجورين، فإن ثقة الشعب قد ضعفت في هؤلاء وأولئك، فكان ينتهز أول فرصة تسنح حتى يمد يده لأي شخص يخلصه من جبروت الوزراء وغفلة الملوك . وكانت أسرة **الفودودي** من أكثر كبار الموظفين خطرا على الدولة، وهكذا خنق أحدهم **أبا عنان** وأغرق **السعيد** في البحر وخلع **أبا تاشفين** ثم نصب **أبا زيان الأول** الذي لم يلبث أن لقي حتفه خنقا على يد هذا الوزير (**عمر**). وكان من أخطر الوزراء نفوذا **سليمان بن داود** الذي عمل على قتل ابن الخطيب ومسعود بن رحو الذي دبر اغتيال عدد من الوزراء، ثم كانت أسرة الوطاسيين التي لم يبق معها الملوك المتأخرين أي نفوذ.

4- **ضعف الروح الحربية:** لعل أقوى برهان على فقدان الملوك المتأخرين ثقتهم بالجيش الوطني اعتمادهم على الجيش النصراني الذي وكلوا إليه حمايتهم وحماية قصورهم، بل ومقاومة المواطنين أحيانا عند تمردهم عوضا عن الجيش الوطني. وهكذا فإن الجيش النصراني ساعد الوزير **عمر الفودودي** على خلع **السعيد** ، وأعلن خلع **أبي سالم** بتأييد **غارسيا قائد** هذا الجيش، كما أن قتله تم بيد أحد أفرادها، وهم **غارسيا** الذي هم بالفتك بالوزير

عمر لولا أن هذا بطش به قبله. ومن الطبيعي أن تلعب القوى النصرانية دورا فعالا في خلع الملوك وتنصيبهم ما دام هؤلاء قد عهدوا إليها بالمحافظة على سلامتهم .

5- التدخل المسيحي في سياسة الدولة المرينية: شكل هذا التدخل مظاهر مختلفة ، بعضها اتخذ صبغة التأييد المعنوي لتنصيب ملك معين كما كان التدخل أحيانا عن طريق إمدادات عسكرية، ثم انتهى بالتدخل المباشر المسلح. فأبو سالم لقي تشجيعا كبيرا من ملك قشتالة ليتولى عرش المغرب بعد أبي بكر السعيد، واستمد الوزير مسعود القشتاليين أيضا في عهد أبي زيان الثالث حتى يناوشوا ابن الأحمر الذي كان يتدخل بدوره في تنصيب وعزل ملوك بني مرين . وتم احتلال سبتة سنة 1415 على يد البرتغال، فعجز بنو مرين عن استعادتها وتكفلت المقاومة الشعبية بمناوشة البرتغال الحرب من آن إلى آخر، ومنذ احتلال سبتة والتدخل المسيحي يتطور ويتسع مدها شيئا فشيئا والدول النصرانية تتكالب على التراب المغربي بمختلف الوسائل.

6- الحرب ضد بني عبد الواد والحفصيين: في معظم الجهود في الميدان العسكري إلى محاولة السيطرة على الدولة الزيانية والدولة الحفصية ، فكان النجاح في جملته محدودا وكان الفشل في كثير من الأحيان يكلف الدولة المرينية خسائر كثيرة في الأموال والأرواح. وقد اصطدموا بمقاومة عنيفة من بين عبد الواد ، كما اصطدموا بنفور الحفصيين.

7- تدخل بني الأحمر: بدأ تدخل بني الأحمر في شؤون المغرب بنحو قرن مضى قبل سقوط الدولة المرينية. ففي عهد أبي زيان الثاني (774-776هـ) أمد ابن الأحمر أميراً ثائراً بأسطول بحجة امتناع الحكومة المغربية من تسليم ابن الخطيب كما ساعد أحمد ابن أبي سالم على تولي الملك، وخشي هذا نفوذه فبطش بابن الخطيب، ثم عمل على خلع هذا السلطان واستدعائه إلى الأندلس وتوليته موسى بن أبي عنان مكانه، حتى إذا توفي هذا وخلفه ابن أخته المنتصر بن أبي زيان، تعاون مع الوزير مسعود علة خلعه وهو بعد صبي، ثم أطلقوا سراح أبي العباس ليستعيد ملكه بالمغرب، وفي الواقع بدأ تدخل بني الأحمر في المغرب على عهد يوسف حيث استولى بنو الأحمر على سبتة سنة 703 هـ، ولكنها لم تلبث تحت أيديهم أكثر من ست سنوات. لقد كان تدخل بني الأحمر في شؤون الدولة المرينية قد أسقط كثير من هيبة الدولة المرينية.

ثالثا: ضعف الدولة الحفصية:

عرفت الدولة الحفصية منذ أواخر القرن 15 أزمة شاملة طالت كل المجالات.
المظاهر السياسية للأزمة:

1- انحلال السلطة المركزية: بدأ مسار التفكك والانحلال في أواخر القرن 15 ، وقد تجلى ذلك في الصراعات بين أعضاء الأسرة الحاكمة بسبب غياب قانون ينظم توارث الحكم وعجز بعض الحكام عن مواجهة الوضع.

2- فقدان السيطرة على أقاليم البلاد: أدى ذلك إلى استقلال عديد المدن عن السلطة المركزية مثل عنابة وطرابلس وقسنطينة وجربة وصفاقص وسوسة وبجاية. مما أدى إلى

إضعاف الحكم المركزي وبروز قوى انفصالية داخلية ، وقد بلغ خطر القبائل أوجه مع الطريقة الشاذلية بالقيروان.

3- تفادى الخطر الخارجي: كانت إفريقية مجال للصراع القوتين الإسبانية والعثمانية ودام ذلك الصراع لمدة 40 عاما ما بين 1534-1574.

مظاهر الأزمة الاقتصادية:

1- القطاع الفلاحي: انحصرت المساحة المزروعة وتراجعت الغراسات وذلك لصالح النشاط الرعوي والترحال، وتراجع الإنتاج الفلاحي عن الاقتصاد التجاري الغير متوازن مع البلدان الأوربية. وكان دور الريف يتمثل في تجميع الموارد الفلاحية وتحويلها إلى المدينة للتصدير ، وقد ارتبط تدهور النشاط الفلاحي بعوامل ظرفية تتمثل في تعسف الأعراب.

2- النشاط الحرفي: تدهور أوضاع الحرفيين وأصباهم الفقر الشديد، وقد ارتبط ذلك بعدة عوامل منها منافسة البضائع الأجنبية وعدم التمكن من مجارات التطور الحاصل في المدن الإيطالية مثل مدينة جنوة والبندقية ، وثقل الضرائب المفروضة عليها.

3- تراجع النشاط التجاري: تراجع النشاط التجاري داخليا وخارجيا وتراجعت التجارة الصحراوية ، ومن العوامل المفسر لهذا الركود هي أزمة البادية والمدينة والظرفية العالمية الجديدة منها الاكتشافات الجغرافية ، مما أدى إلى تراجع نشاط الموانئ الحفصية.

المظاهر الاجتماعية للأزمة:

1- تفكك المجتمع: يتجسم ذلك في التنافر بين السكان المستقرين في المدن والقبائل الرحل وسبه الرحل. وساهمت فتاوي العلماء في المزيد من التوتر مثل فتاوي ابن عرفة التي تحث على مقابلة الأعراب تفكك المجتمع الحضري نتيجة تباين مواقف ربض باب السويقة وباب الجزيرة تجاه حملة خير الدين بربروس سنة 1534 على تونس حيث برزت مواقف مساندة للسلطان وأخرى مساندة لخير الدين.

2- انتشار الطرق الصوفية: يعود انتشارها إلى القرن 13 ، وزادت انتشارا في أواخر القرن 15 والقرن 16. وارتبطت بالظروف المتسمة بانعدام الأمن وتعدد الآفات وبتصاعد الخطر المسيحي.

أسباب سقوط الدولة الحفصية:

- اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظر له ابن تومرت، وحرصها على تبني عقيدته الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي، فأصبح الولاء ضعيفا للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين تابعوا تبني منهج ابن تومرت كمناوره سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

- الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي، وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

- استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتضطر أحيانا الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحيانا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية.

- استهدفت مدن الدولة الحفصية من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عموماً، فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي والانتقام من المسلمين، واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.

- ظهور قوى إسلامية سنّية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية، والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى؛ نصرته الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العباد.

- تطّلع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنّية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم، ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم، وتعاونوا على البر والتقوى، من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين، ودحر النصارى الغاصبين.

3- - كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه الحال من التنازع بين المسلمين، وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى.

- ظهور الخطر الأوربي:

وفي جو تلك الاضطرابات الداخلية التي تميزت بها الممالك المغربية، استغلت بعض الدول الأوربية تلك الحالة، فحصل بعض ملوكهم على امتيازات لجالياتهم خولت لهم فيما بعد مطلق الحرية في تصرفاتهم. فقد استطاع ملك فرنسا لويس الحادي عشر خلال سنة 1482 عقد معاهدة تجارية مع بجاية، التزم فيها ملك بجاية ضمان أمن الجالية الفرنسية الموجودة في مملكته، حيث كانت تلك الجالية ((تسكن فنادق خاصة بها، وكل جالية يخصص لها فندق يقيم فيه أفرادها تحت نظر قنصلها الذي كان يسكن معها، فالفندق كان مخصصا للسكن والتجارة، وكانت عبارة عن قرية تشمل على كنيسة ومقبرة)) . وقد أدى ذلك إلى تردي الأوضاع في المدينة، حيث وصف تلك الحالة الفقيه أحمد الشريف البجائي، ضمن السؤال الذي وجهه إلى أستاذه أحمد بن الحاج البيدري التلمساني بعد عودته من تلمسان فقال: ((ماجوابكم في موضع كثر فيه الظلم والأشرار وانتشر فيه الباطل، وذل فيه المسلمون، وعز فيه الكفار، وارتفع فيه الجور والظلم، واتضع فيه أهل والمعرفة العلم، تمكس فيه جل المبيعات على المسلمين)) .

هكذا بدأ التغلغل الأوربي العسكري نشاطه في المنطقة منذ بداية القرن الخامس عشر، ففي سنة 1415 احتل ملك البرتغال يوحنا الأول مدينة سبتة الساحلية، وفي عام 1458، قام بعده ألفونسو الخامس باحتلال قصر المجار. وبعد ذلك بسنوات استولى على أرزيلا على المحيط الأطلسي، وعلى طنجة في سنة 1471. بينما انصبت أنظار مملكة أراغون نحو إفريقيا الحفصية، وأنظار مملكة قشتالة على البقية الباقية من مملكة غرناطة. حيث غزا ألفونسو الخامس جزيرة جربة سنة 1432. لكنهم لم يبقوا فيها سوى سبعة وعشرون يوماً فقط. ولم يكن المغرب الأوسط بمعزل عن تلك الأخطار، فقد تردد عليه عدد من الجواسيس الأوروبيين في صورة تجار أو غير ذلك من المهن، الذين كانوا مبعوثين من قبل الملوك الأسبان.

لقد تنبه بعض الأعيان والعلماء الجزائريون لتلك الأخطار التي أخذت تهدد الأراضي الأراضي الجزائرية وغيرها من بلاد المغرب، ولعل من أشهرهم الشيخ عبد الرحمن

الثعالبي ، الذي بعث برسالة في الجهاد إلى أحد تلاميذه في نواحي بجاية ، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد، يدعو فيها لإقناع العوام بوجود الاستعداد للجهاد لمواجهة الأعداء ، ولم يكتف الثعالبي بحث العامة فقط بالخطر المحدق بهم ، بل بعث رسائله إلى الفقهاء أيضا ومما جاء في نص الرسالة : ((أكتب رحمك الله لإخواننا ببجاية وحذرهم ليبتقظوا ويعملوا ما أشرنا إليه ... ولو اطلعت على ما اطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا بشيء من أمور مهامكم بعد الصلاة إلا بألة الجهاد)). وبعد سقوط غرناطة واحتلال الإسبان لبعض المدن الساحلية لبلاد المغرب ن أندر الأديب الشيخ محمد التواتي سكان مدينة وهران بقصيدة مطولة منها البيتين التاليين:

يا أهل وهران انظروا نظرة شفقة لبلدكم من قبل أن تتردى
وقبل مجيء المنشآت ببحرها وأي قلوب عندها مستقرتي

ولعل عدم الحيطة والحذر من التحرش الأوربي تجاه البلاد ، التي لم تحضى بالعناية من جانب ملوك وعلماء وعامة الناس جعلت المنطقة تتعرض إلى تلك الهجمة الصليبية الجديدة التي بدأ فصولها منذ أواخر القرن الخامس عشر واستمرت طوال القرن السادس عشر.

السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1830-1519

المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

المحور الثاني: سقوط القسطنطينة 1453 وأثاره على مستقبل العلاقات الدولية

أ.د. عبد القادر فكايير

1- فتح محمد الفاتح للقسطنطينية:

أدرك الفاتحون منذ القدم عظمة هذه المدينة وأهمية موقعها ، وقد كان للمسلمين الأوائل منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام. ولندكر أن المسلمين قد حاصروا القسطنطينية إحدى عشر مرة ، منها سبعة مرات في القرنين الأولين للإسلام. وأعظم محاولاتهم ما كان في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وسليمان بن عبد الملك في القرن الأول الهجري. ثم ظهر الأتراك العثمانيون ، وحاصروا العثمانيون في عهد بايزيد الأول القسطنطينية ثم اضطر بايزيد لرفع الحصار عنها حين ظهر المغول ، ثم حاصرها مراد الثاني ولم يتمكن من النيل منها لضعف الأسطول العثماني كقوة مهاجمة فتركها و إن الاستيلاء على عاصمة الامبراطورية الرومانية القديمة ومن ثم تحويل الدولة العثمانية إلى امبراطورية ذات توجه عالمي ، كان حلمًا يراود الباب العالي منذ زمن بايزيد الأول .

وفي أواخر القرن 14م بدأت الدولة البيزنطية تأخذ في الضعف والتفكك ، وفي نفس الوقت الذي كان العثمانيون يعملون على تنظيم شؤونهم والإعداد لتأسيس دولة قوية متماسكة. وقد بدأ الأتراك في محاصرة القسطنطينية بخمسين ألف رجل ، وقاموا بنصب معسكرهم في مواجهة المدينة لمدة ثلاثة أيام ، وبعدها عاد الأسطول العثماني إلى غاليبولي ، حيث وصلها في السادس من شهر سبتمبر 1453م ، كذلك فعلت القوات البرية المحاصرة للمدينة. كانت المدفعية سلاحا حاسما في الحصار، إذ أخذت في قصف أبواب و أسوار وأبراج المدينة ، ولكن الخطوة الحاسمة جاءت على يد البحرية العثمانية التي نقلت برا إلى القرن الذهبي خلف السلسلة العظيمة التي كانت تسده ، وبذلك أصبحت العاصمة مهددة من كل الجوانب. وفي 29 ماي 1453م أو بعد سنتين من اعتلاء السلطان محمد عرش الدولة ، قامت فرق الانكشارية بحملة أخيرة على أسوار القسطنطينية ، وفتحوا البوابة في السور الكبير ودمبوا رأسا إلى السياج ، وكانت معركة كبرى قتل فيها من تمرکز هناك ، فقد هاجمهم المشاة من المسلمين ولم يتعرض الآخرين في التكوينات المنتظمة والذين خرجوا من أماكنهم بسبب الصياح لنفس المصير. أما بالنسبة لم أسر من القادة والزعماء البيزنطيين فإنه قد عفى عن وزراء الامبراطور لوكاسوماجدكوس ، أما العسكريين فقد ظلوا في الأسر. وهكذا فتحت المدينة المحصنة ، بعد حصار دام إحدى وخمسين يوما على يد محمد الفاتح الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وانتهت بذلك آخر صفحة من صفحات تاريخ بيزنطة ، وتوسع محمد الفاتح في أوربا، إذ دانت له معظم شبه جزيرة البلقان .

نتائج الفتح العثماني للقسطنطينية 1453

أحدث فتح العثمانيين للقسطنطينية في 29 ايار (مايو) 1453 دويماً كبيراً في عالم العصور الوسطى. فقد جاء ايداناً بما يمكن تسميته - تجاوزاً - نشوء نظام عالمي جديد، بعدما نجح العثمانيون في القضاء تماماً على بيزنطة إحدى أهم القوى المؤثرة في العصور الوسطى لأكثر من احد عشر قرناً.

1- على صعيد العالم الإسلامي: ونتيجة لفتح القسطنطينية فقد تمكن العثمانيون من السيطرة على ضفتي مضيق البوسفور، والربط بين الأراضي العثمانية في آسيا الصغرى والقارة الأوروبية. وهو ما أدى إلى تحسين وضعهم الجيوبوليتيكي بشكل واضح، و سيطرتهم الكاملة على طرق التجارة بالبحر الأسود. وأدى ذلك إلى تنامي القوة البحرية العثمانية. حيث بدأ الاهتمام ببناء الأساطيل لمساعدة القوات البرية في مرحلة الفتوحات الجديدة، وخاصة بعد أن لوحظ عدم كفاءة الأسطول العثماني إبان المعارك البحرية مع الأسطول البيزنطي قبيل فتح القسطنطينية.

بدأ العثمانيون في تدشين مرحلة جديدة، والتحول من مرحلة الدولة إلى مرحلة الإمبراطورية، بعد أن أصبحت ممتلكاتهم تحتل رقعة واسعة، وبعد أن اتخذ السلطان محمد الفاتح من القسطنطينية عاصمة جديدة له.

وعلى صعيد العالم الإسلامي عمت مشاعر الفرح نتيجة نجاح العثمانيين المسلمين في فتح القسطنطينية. وعلى رغم حالة التوجس التي اكتنفت العلاقات العثمانية - المملوكية، فقد أعلن المماليك ابتهاجهم بهذا الحدث، الذي عدّوه علامة على انتصار الدين الإسلامي نفسه.

وأرسل السلطان محمد الفاتح رسولاً للسلطان المملوكي الأشرف إينال في تشرين الأول (أكتوبر) 1453، يهنئه فيها بجلوسه على دسك الحكم في القاهرة، ويخبره بنجاحه في فتح القسطنطينية، ويهديه أسيرين من كبار المسؤولين البيزنطيين بالقسطنطينية.

وتعبيراً عن فرح العالم الإسلامي بهذا الحدث الجلل، أمر السلطان إينال بتزيين شوارع القاهرة والحوانيت والأسواق لأيام عدة. كما قام بالرد على رسالة السلطان بإرسال مبعوث لتهنئة الفاتح بانتصاره «... هذا النصر الذي من الله تعالى به على المسلمين.»

كان من الطبيعي أن تكون العلاقة الطيبة والودية موجودة بين محمد الفاتح، والأشرف إينال، لأنه لم يكن قد ظهرت في الأفق بعد نذر احتمالات الصدام العثماني- المملوكي. ولهذا فقد نظر المماليك إلى انتصارات الفاتح على القوى المسيحية الأوروبية بعين الارتياح، ظناً منهم أن ذلك قد يحول نظر العثمانيين بعيداً من حدود دولتهم.

كما أرسل العديد من الحكام المسلمين، كالبهمني سلطان الهند الجنوبية وآخرون سفراء إلى القسطنطينية لتهنئة السلطان محمد الفاتح بنصره.

2- **على صعيد الغرب المسيحي:** أما الآثار الناجمة عن فتح العثمانيين للقسطنطينية على صعيد الغرب المسيحي فيمكن رصدها عبر محاور عدة تتجلى في صدى سقوط القسطنطينية على البابوية الكاثوليكية والغرب الأوروبي، وعلى النشاط التجاري للأساطيل الأوروبية، وعلى موقف المسيحية الأورثوذكسية.

دعا البابا نيقولا الخامس في ايلول (سبتمبر) 1453 إلى ضرورة قيام حملة صليبية جديدة لاستعادة مدينة القسطنطينية من قبضة الأتراك العثمانيين. ونظراً لعدم تحمس الدول الأوروبية لهذه الفكرة، والخوف من استئثار عداة العثمانيين من جديد، فلم تخرج هذه الدعوة إلى التنفيذ بشكل جدي.

ثم تولى البابا كالستوس الثالث زمام الإدارة البابوية، وأعاد فرض ضريبة العشر من أجل تمويل أسطول بحري لاستعادة مدينة القسطنطينية. لكن ذلك الأسطول لم ينجح سوى في الحصول على بعض الجزر في بحر إيجه التي سرعان ما استردها العثمانيون.

واهتزت أوروبا المسيحية بعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين، لأنها ظلت لأكثر من إحدى عشر قرناً تعتبرها الدرع الواقية، أو الحصن الشرقي المنيع الذي قام بحماية القارة الأوروبية من أخطار الغزاة الآسيويين في العصور الوسطى. فضلاً عن كونها حامية المسيحية الأوروبية الأرثوذكسية.

بعد نجاح العسكرية العثمانية في اجتياح القسطنطينية الحصينة 1453، بدأت الجيوش الأوروبية تدرك التكتيكات الجديدة في فن الحصار، ما أدى بها إلى دراسة فنون الحرب العثمانية، وكيفية محاصرة واقتحام المدن، وأدى إعجابهم بالجنود الانكشارية إلى محاولة تكوين فرق عسكرية مشابهة. كما وجهت الجيوش الأوروبية أيضاً اهتمامها نحو ضرورة الاستفادة من الدرس العثماني وتطوير المدافع لدورها الحاسم في الحروب.

أثر سقوط القسطنطينية في الفكر الغربي: ولا يمكننا أن نغفل الأثر الإيجابي الذي أحدثه سقوط القسطنطينية في الفكر الغربي في نهايات العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث. لأن التهديد المستمر من قبل العثمانيين للقسطنطينية، ثم النجاح في اقتحامها في النهاية، دفع بالكثير من رجال الفكر والعلم والثقافة في جامعة القسطنطينية إلى الهرب باتجاه إيطاليا.

وحمل هؤلاء الأدباء والعلماء والفلاسفة معهم ذخائر الكتب، ومفاتيح العلم اليوناني، الأمر الذي ساهم في إثراء الفكر الغربي، وزاد من نزعة التنوير فيه، وساعد في إعادة ربطه بروافد الحضارة اليونانية القديمة. وأدى ذلك في النهاية لأن تنبأ إيطاليا مكانتها كوريثة للثقافة البيزنطية والفكر اليوناني، وكذلك إلى بزوغ فجر النهضة الأوروبية الحديثة.

الآثار الاقتصادية: أما عن الآثار الاقتصادية المباشرة لفتح العثماني للقسطنطينية في النشاط الاقتصادي والتنافس التجاري، فقد سعت الجمهوريات التجارية الإيطالية إلى كسب ود السلطان العثماني، والحصول على امتيازات تجارية في العاصمة العثمانية الجديدة.

وبعيد الفتح مباشرة، نجح تجار مدينة جنوا في الحصول على اتفاقية تجارية مهمة من السلطان محمد الفاتح في حزيران (يونيو) 1453، منحهم فيها امتيازاتهم السابقة في غلاطه. كما نجحت البندقية في نيسان (أبريل) 1454 في الحصول على اتفاقية مشابهة من السلطان الفاتح. وأدركت جمهورية فلورنسا أنه لا بد لها من الحصول على موطىء قدم في العاصمة العثمانية الجديدة، فتحننت الفرصة لإقامة علاقات تجارية قوية مع العثمانيين وأرسلت أسطولاً تجارياً إلى القسطنطينية، كما استقبلت سفارة عثمانية بهدف إقامة علاقات ودية.

أثر فتح القسطنطينية على الملاحة في البحر المتوسط: وأدى سقوط القسطنطينية في قبضة الأتراك العثمانيين إلى زيادة الأساطيل البحرية العثمانية في مياه البحر المتوسط، الأمر الذي أثار خشية دول غرب أوروبا، وخاصة البرتغال وإسبانيا على سفنها وتجارها. وهو ما دفعها إلى محاولة البحث بشكل جدي عن طرق بحرية وملاحية جديدة، دون المرور بالمياه التي تخضع للسيادة الإسلامية. وبدأت آنذاك حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية، عبر المرور خلف أفريقيا الغربية والجنوبية.

انفصال كنيسة القسطنطينية على كنيسة روما: كما هدف السلطان الفاتح إلى استقرار السكان البيزنطيين في المدينة، ووافق على أن يظل السكان تحت رعاية مذهبهم الأرثوذكسي، فأمر بالإفراج عن البطريرك البيزنطي لكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية، وأعاد تنصيبه تحت اسم جيناديوس Ginnadius في العام 1454.

ولا شك في أن ما قام به محمد الفاتح، قد أكد تكريس مبدأ الانفصال التام بين كنيسة القسطنطينية، وكنيسة روما إلى الأبد، بل أنه جعل السكان الأرثوذكس ينظرون إليه باعتباره حامى الأرثوذكسية الشرقية، بعد أن تمتعوا بحرية العبادة وفق مذهبهم ودون خوف من هاجس الاتحاد الكنسي. وفي ما بعد الت الأرثوذكسية إلى كنيسة موسكو في روسيا. حيث رفضت الكنيسة الروسية فكرة وحدة الكنائس وقرارات مجمع فلورنسا 1439.

روبدأ رويداً بدأ السكان الأرثوذكس البيزنطيون في التحول نحو الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا المسيحية. وانتقل الثقل من اسطنبول العثمانية إلى العاصمة الروسية موسكو.

السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

المحور الرابع: سقوط غرناطة 1492 وانعكاساته
أ.د. عبد القادر فكاير

أولاً: وقائع سقوط غرناطة

1- مملكة غرناطة والصراعات الداخلية:

بينما كانت مملكتا قشتالة وأراغون في طريقهما إلى التوحيد، وبصدد تكوين دولة إسبانيا الحديثة، كانت مملكة غرناطة تعيش أياما حاسمة من تاريخها يحكمها السلطان أبو الحسن منذ سنة 1465، الذي كان يتسم بالشجاعة والميل إلى الجهاد، فقد شرع في تحصين مملكته وتقوية جيشه، وبادر إلى قتال النصارى، وتمكن من استرداد بعض القلاع والحصون، كما أوقف دفع الجزية التي كان يدفعها والده إلى مملكة قشتالة. ولكنه ما فتئ أن واجه في بداية حكمه ثورة من أخيه أبو عبد الله المعروف بالزغل، الذي كان واليا على مالقة، مستعينا بملك قشتالة هنري الرابع، ودام النزاع بينهما ثلاثة سنوات، انتهى بإبرام الأخوين لمعاهدة صلح يبقى بموجبها أبو عبد الله الزغل حاكما مستقلا على مالقة وأحوازها. وفي سنة 1478 أرسل الملكين الكاثوليكين سفيرا إلى غرناطة يطلب من أبو الحسن دفع مؤخر الجزية، فرد الملك على السفير بالرفض. وهكذا اختار أبو الحسن المواجهة بدل الخضوع، فاستولى على قلعة الصخرة سنة 1481. وذكر عنه أنه استسلم إلى حياة الدعة والترف، اقترن خلالها بجارية رومية اسمها ثريا التي وقد أنجبت له ولدان، وكان لأبي الحسن ولدين آخرين من زوجته الأولى عائشة، المعروفة "بالحرة"، وهما أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف. ورغبة منها في منع أكبر أبناء عائشة لولاية العرش، وترشيح أحد أبنائها لهذا المنصب؛ راحت ثريا تضع المكاييد، ضد عائشة وتؤثر على السلطان إلى أن أقنعته بوضع الملكة وولديها في السجن. لقد أثار هذا العمل غضب كثير من الأشراف. وبمساعدة أنصارها من بني سراج تمكنت عائشة أن تفر من معتقلها مع ولديها وذلك في سنة 1482، وتوجهت إلى وادي آش في جبال البشترات، وهناك التحق بهم عدد كبير من الأتباع. وقامت إثر ذلك ثورة قام بها أغلب سكان غرناطة يدعون للأمير أبو عبد الله ضد أبيه أبي الحسن الذي كان مشغولا في محاربة النصارى في الدفاع عن لوثة. فلم يستطع هو وأنصاره إخضاعهم لسلطته، ففر إلى مالقة حيث أخوه أبو عبد الله الزغل، بينما جلس ابنه أبو عبد الله محمد وذلك في أواخر سنة 1482.

2- غرناطة بين الحرب الأهلية وهجمات النصارى:

كان النصارى يترقبون كل ما كان يحدث بين المسلمين ، فاجتمع قادتهم في مدينة انتقيرة مع قواتهم البالغ عددها 2700 فارس ، و عدة كتائب قصد احتلال مالقة . غير أن أبو عبد الله الزغل استطاع رد هجومهم في معركة الشرقية وتمكن من القضاء على نحو 3000 رجل، ذلك في شهر مارس 1483. وكان أبو الحسن في تلك الأثناء يقاتل القوات الموالية لابنه في منطقة المنكب حيث تفوق عليه في موقعة الدب .

أراد أبو عبد الله أن يحذو حذو عمه إثر الانتصار الذي حققه على الأسبان في مالقة . فتحت تشجيعات الأمير علي العطار، خرج على رأس قوة تتألف من 9000 من المشاة و700 فارس متوجها إلى قرطبة، وعندما بلغ بلدة لوشينا (Lucina) ، واجه قوات النصارى في معركة عنيفة، انهزم فيها جيشه ، وخسر أكثر من 5000 بين قتيل وجريح، كان من بين القتلى علي العطار، ومن بين الأسرى الملك أبو عبد الله ، الذي اقتيد إلى قرطبة حيث سجن في قلعة بيانة ، وذلك في أبريل 1483 .

حاول الغرناطيون تجاوز محنتهم ، حيث اجتمع أعيانهم وقرروا استدعاء أبو الحسن الموجود في مالقة ليتولاهم ، لكنه اعتذر عن تلك المهمة ، وتنازل عن العرش لأخيه أبو عبد الله الزغل ، وتوحدت الملكة التي كانت منشطرة إلى قسمين . لكن أسر أبو عبد الله لدى النصارى كان له انعكاسات خطيرة على المسلمين، حيث كان الملك الأسير ضعيف الشخصية غير متمتع بالخصال الباهرة التي كان يتصف بها أسلافه من بني الأحمر، لقد كان يرغب في العودة إلى عرش غرناطة بأية صورة كانت.

أدرك أعداؤه تلك الصفات، ولما أصبح مهينا لكل ما يريدون عقدوا معه معاهدة سرية ، مما جاء فيها : أن يعترف بالطاعة والتبعية للتاج الأسباني ، وأن يدفع لهم جزئي سنوية قدرها 12 ألف دوبلا من الذهب. ثم أطلق سراحه في أوائل سنة 1485، بعد أن قضى في الأسر أكثر من سنة ، وتوجه رأسا إلى حي البيازين الذي كان يدين له بالولاء، وتحصن القسبة حيث كانت أمه تنتظره . ولما انتشر الخبر بين الناس انقسموا بين مؤيد لأبي عبد الله وبين من كان مؤيدا لوالده أبي الحسن .وقامت من جديد الحرب الأهلية بين الطرفين استغلها الأسبان في الانقضاض على الحصون والحواضر الإسلامية فاحتلوا مدينة رندة سنة 1485. وتواصل خطر النصارى وسط فتنة غرناطة الداخلية - حيث كان الطرفان في حالة مفاوضات بهدف الوصول إلى صلح - فهاجموا مدينة لوشة ، التي كانت من نصيب عبد الله الصغير واحتلوها سنة 1486 ، وقد شاع في تلك الأثناء بأن السلطان تظاهر بالدفاع عن المدينة باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة، صرح عند ذلك أهل غرناطة بأنه ما جاء للوشة إلا ليدخل إليها العدو الكافر. واحتل النصارى بعد ذلك مجموعة من الحصون الإسلامية منها حصن ملكين، قلنبيرة ، منتفريد ، الضحة، الصخرة. ثم قاموا بتحسينها وترميمها وتزويدها بالقوات العسكرية استعدادا لحصار غرناطة. لم يتوقف فيردناند عن الكيد للمسلمين في ظل الحرب الأهلية التي ازدادت حدة

في أواخر سنة 1486 ، فعندما التحق أبو عبد الله الصغير بحي البيازين قام فرديناند بتقديم له العون المادي والعسكري ، وقام من جهة أخرى بحملة على مدينة بلش، ورغم خروج الزغل إليها واستماتة أهلها للدفاع عنها ، إلا أنها سقطت في يد النصارى في أبريل سنة 1487 ، وتفرق أهلها في مختلف أرجاء الأندلس الإسلامية ، ومنهم من قطع البحر إلى شمال إفريقيا. ثم توجهت أنظارهم إلى مالقة أحد الثغور الإسلامية المنيعه ، ونقطة اتصال بالممالك المغربية. ولقطع ذلك الاتصال حاصرتها برا وبحرا ، وقاوم أهلها وصمدوا في وجه الحصار ، حتى نفذ ما كان لديهم من الزاد حتى استهلكوا حيواناتهم ، ومات الكثير منهم جوعا، عندئذ استسلموا ودخل العدو بلدهم وذلك في أوت 1487، بعد حصار دام 3 أشهر .

ونتيجة لتلك الأخطار أوفد أبو عبد الله الزغل سفارات إلى الممالك المغربية ومصر والدولة العثمانية يطلب المساعدات، لكنه لم يتلقى شيئا بسبب الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الأخرى. ولكن يمكن التوقف عند حکام تلمسان ، فقد ذكر "ايرفينغ" أن الملك الزياني أبو عبد الله محمد الثابتي أرسل مبعوثا يحمل هدايا إلى الملكين الكاثوليكين، وطلب منهما أن يعفوا عن سكان مدينة مالقة الذين أسروا وسبوا ، ومنحهم نفس الوضع الذي كان عليه سكان المدن الأخرى التي كانت تابعة لهما.

بعد سقوط مالقة لم يبق للمسلمين من المواقع المطلة على البحر سوى المنكب والمرية يمكن لهم الاتصال بإخوانهم في الممالك المغربية ، أو وصول المتطوعين عبرها. وتمهيدا لحصارهما وقطع الإمدادات عنهما؛ شرع فيردينا ند في احتلال الحصون والقرى القريبة من الثغرين، ثم استولى على ثغر المنكب في خريف سنة 1489 ، وبعدها فرض الحصار على المرية ، وأجبر أهلها على التسليم في شهر فيفري 1490، وخرج عدد كبير من سكانها إلى سواحل بلاد المغرب.

وبعد ما أكمل فيردينا ند السيطرة على جميع الثغور الإسلامية وعزل أهل غرناطة من الاتصال بالمسلمين في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ، احتل "بسطة" التي كانت تحت سلطة الزغل الذي كان في معقله بوادي آش ، فتركها لمصيرها تقاوم لوحدها، وسقطت في النصارى في ديسمبر 1489 بعد حصار دام أكثر من 6 أشهر ، وغادرها أهلها إلى وادي آش ، آخر معقل بقي يحكمه أبو عبد الله الزغل ، ولما أدرك هذا الأخير بعدم جدوى المقاومة ، لكونه أصبح محاصرا من جميع الجهات ، فضل الاستسلام والانضواء تحت طاعة فرديناند. لكنه أدرك بعد حين عدم قدرته على العيش في ذلك الوضع المهين ، فتنازل عن الحكم وترك الأندلس وهاجر إلى المغرب الأوسط في سنة 1490، حيث نزل بوهران ثم انتقل إلى تلمسان حيث قضى فيها بقية حياته.

2- حصار غرناطة وسقوطها :

كان على أبو عبد الله بن أبي الحسن أن يسلم غرناطة عند سقوط بسطة والمرية ووادي آش حسب الشروط التي كانت ضمن المعاهدة التي أبرمها مع النصارى عند

إطلاق سراحه. وبناء على ذلك أرسل ملك قشتالة مبعوثا إليه يدعو إلى تسليم غرناطة ، غير أن شعب غرناطة أرغموا ملكهم على رفض طلب القشتاليين. ولما علم فيرديناند بذلك الموقف شرع في الاستعداد للحرب ، وقامت غرناطة من جهتها تستعد للمقاومة تحت قيادة موسى بن أبي غسان.

وفي ربيع سنة 1490 خرج فيرديناند إلى غرناطة على رأس قوة تتألف من خمسة آلاف فارس وعشرين ألف من المشاة . وعاث في حقولها ومزارعها فسادا ، فقام بقطع الطرق ، وخرج إليه المسلمون فوقع بينهما قتالا عنيفا ، استطاع المسلمون قتل العديد منهم. ولما يئس فرديناند من اختلال غرناطة ؛ رجع من حيث أتى . ورغم خروج أبو عبد الله مع قواته من أجل استرداد بعض الحصون ، منتعشا بنشوة رد الأعداء عن غرناطة ، مدفوعا بشعور الحماسة الدينية لدى الناس ، إلا أن ذلك الموقف جاء متأخرا . ففي أبريل 1491 عاود الملك الكاثوليكي الهجوم على رأس جيش يتألف من ثمانين ألف رجل ، وفي طريقه إلى غرناطة أنشأ مدينة محاطة بالأسوار لحماية نفسه وجيشه أطلق عليها اسم سانتا في (Santa-Fe). وأصبحت غرناطة تحت الحصار الذي دام لمدة سبعة أشهر، فقل الطعام واشتد الجوع وانقطعت الإغاثات التي كانت تأتي من الجنوب ، عندئذ اجتمع الأعيان والفقهاء وقواد الجيش مع أبو عبد الله ، وتناقشوا حول المخرج الذي يختارونه لوضعهم المتردي إما التسليم أو الموت ، وفي الأخير اختاروا التسليم . غير أن هناك من وقف ضد هذا الموقف وهو موسى بن غسان ، ولم يكن لموقفه من أثر . وأرسل أبو القاسم عبد الملك إلى معسكر النصارى مزودا بشروط التفاوض، وبعد أيام من التفاوض اتفق الطرفان على وضع معاهدة التسليم التي وقع عليها الطرفان في 25 نوفمبر 1491 تضمنت سبعة وستين بنداً ، وحددت المعاهدة مهلة التسليم بسبعين يوما ، لكن أبو عبد الله سلم غرناطة قبل الموعد المحدد بشهر ، وذلك في 2 جانفي 1492. ثم خرج منها باكيا وأمه عائشة تعاتبه بمقولتها الشهيرة ((فلتبك كالنساء ملكا لم تدافع عنه كالرجال)). ولما اطمأن الملك الكاثوليكي من خضوع غرناطة التام دخلها ، وقد سبقه إليها قوة كبيرة من الجند ، . وفعل أبو عبد الله كما فعل عمه ، فلم يتحمل البقاء على ذلك الوضع خاصة وأن فرديناند كان ينظر إليه بعين الريب ، فغادر الأندلس مع أسرته ، واتجه إلى المغرب حيث أقام في مدينة فاس . ويفهم من كلام صاحب " أخبار العصر " أن أبو عبد الله لم يخرج من الأندلس عن طيب خاطر حين قال : ((نزل قرية أندريش وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ، ث أن الطاغية ظهر له أن يصرف الأمير محمدا إلى العدو ، فأمر بالجواز وبعث للمراكب تأتي لمرسی عذرة)) .

ثانيا: انعكاسات سقوط غرناطة على منطقة غربي المتوسط

1- انعكاسات سقوط غرناطة على الأندلسيين:

لقد أبدى الأسبان في السنوات الأولى من سقوط غرناطة سياسة لينة تجاه المسلمين ، متظاهرين باحترام معاهدة الاتفاق ، غير أن الخشية والشك كانت تساور أنفسهم في أن يثور المسلمون ، خاصة وأنه كان لديهم صلات بمسلمي الممالك المغربية والدولة العثمانية . ولكن الروح الصليبية التي تميز بها الملكان الكاثوليكيان، التي كانت واقعة تحت تأثير الكنيسة ، جعلت سياسة التساهل مع المسلمين لم تدم طويلا ، وبدأت تتحول إلى انتهاك شروط الاتفاق ، وذلك بتعديل نصوصه . ففي سنة 1495 فرضت ضرائب جديدة على المسلمين فقط. ولم تستمر سياسة التظاهر بالالتزام بالشروط أكثر من أربعة سنوات ، حتى بدعوا في خرقها . ففي سنة 1499 بدأت سياسة التنصير التي بها الكاردينال خيمينيس عند انتقاله إلى غرناطة ، وقد أدت تلك الحركة إلى اعتراض المسلمين ، حيث ثار سكان حي البيازين في ديسمبر من نفس السنة . كما قام الكاردينال بغلق المساجد وحرق الكتب والمخطوطات التي بلغ عددها حوالي 800 ألف . وفي 12 فيفري 1502 صدر مرسوم ملكي يخير المسلمين بين النصرانية مغادرة الأندلس . وقد وصفت بعض المصادر الإسلامية تلك السياسة ، فقد جاء في كتاب "أخبار العصر": ((فلما رأى ملك الروم أن الناس تركوا الجوار [أي الهجرة] وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط ... فصلا فصلا... وزالت حرمة المسلمين وأدركهم الهوان والذلة ... وفرضت عليهم ... ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصير وأكره عليه ... ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا من يقولها في قلبه)) . وقد زادت معاناة أهل الأندلس مع ظهور ديوان التحقيق الذي يقوم بإجراء تحريات عن حقيقة بقاء المسلمين على دينهم ، وكان المدان ينال مختلف أنواع التعذيب منها الموت حرقا .

ومن بين ردود فعل المسلمين ، أن العديد منهم تنصر ، خاصة عندما كان النصراني يستعملون الوعد والوعيد لتنصير الأعيان ، وهذا ما جعل العامة يتبعونهم . وهناك من كانوا يخفون إسلامهم . ولما وصلت أخبار معاناتهم إلى إخوانهم في بلاد المغرب وتخوفهم عن مدى صحة إيمانهم أرسل لهم أحد فقهاء الجزائر سنة 1504 ، وهو أحمد جمعة المغراوي خطابا يطمئنهم بصحة إيمانهم ومما جاء في ذلك الخطاب : ((إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر ... فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولو كأنها لفقيركم أو رياء ، والغسل ... ولو عوما في البحر ... إن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فاحرموا بالنية ... وإن أكرهوكم على حرام فافعلوه منكربين بقلوبكم)) .

كما أدت عمليات التنصير الإجباري إلى قيام الثورات ، كالثورة التي وقعت في حي البيازين سنة 1499 لكنها قمعت بكل قوة ، وسرعان ما اندلعت ثروة أخرى أعنف منها في جبال البشرات في جانفي 1500 ، فاستولى الثوار على العديد من الحصون وقتلوا قسيسي القلعة اللذين كلفا بتنصيرهما وهما دي ميدلين والونسو غاسكون ، كما أسروا العديد من سكان الأحياء المسيحية ، وأرسل فرديناند قوات عسكرية بقيادة الدون

ألونسو دي أغيار (Aguillar) . غير أن المسلمين ألقوا بهم هزيمة فادحة فقتلوا منهم الكثير على رأسهم دي غيار نفسه ، وذلك في مارس من سنة 1501 . ولوضع حد لتلك الثورة لجأ الملك إلى إعلان العفو الشامل عن الثوار مقابل دخولهم في دين المسيحية ، أو يغادروا البلاد دون أن يأخذوا أموالهم وممتلكاتهم إلا ثيابهم التي يلبسونها.

وللحفاظ على أرواحهم ودينهم اضطر الأندلسيون إلى الفرار إلى بلاد الإسلام ، فعلى الرغم من عدم قدرة المسلمين سواء في المشرق أو في المغرب من تقديم لهم العون العسكري أو المادي الكافي ، بسبب الأوضاع الداخلية المتدهورة ، إلا أنهم فتحوا لهم بلادهم ، بل قطعوا البحر بقواربهم إلى ثغور الأندلس وساهموا في ترحيلهم إلى أوطانهم. إن أغلب تلك الهجرات كانت إلى الممالك المغربية وقليل منهم من هاجر إلى المشرق ، فقد وصلت جماعة منهم إلى القسطنطينية ومصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام. وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس.

2- الغزو الإسباني لسواحل شمال إفريقيا:

إذا كان الأسبان قد نجحوا في احتلال بعض المدن الساحلية لفترات متفاوتة من الزمن ، فإنهم فشلوا في السيطرة على مدن ساحلية أخرى رغم جديتهم في مساعهم التوسعي . غير أن الشيء الملفت للانتباه هو أنه رغم الاندفاع الذي أبداه القادة الأسبان نحو الأراضي الجزائرية بقواتهم العسكرية ، وتمكنهم من احتلال بعض المواقع الساحلية إلا أنهم لم يتمكنوا من التغلغل إلى المناطق الداخلية من البلاد . باستثناء قدرتهم على الوصول إلى مدينة تلمسان مروراً ببعض المناطق المؤدية إليها . وقد تم الغزو على مرحلتين أساسيتين ، المرحلة الأولى في القرن السادس عشر ، والمرحلة الثانية ما بعد هذا القرن.

أولاً : في القرن السادس عشر :

تميز هذا القرن بتعرض الجزائر إلى غارات أسبانية عديدة ، نجحوا في بعضها في احتلال بعض المدن وفشلوا في أخرى . وقد استعمل الأسبان طرقاً مختلفة في فرض سيطرتهم على المدن الساحلية الجزائرية، من أهمها طرقتان رئيسيتان هما : أسلوب القوة العسكرية ، وأسلوب فرض المعاهدات على زعماء المناطق التي وصلوا إليها ، تحت طائلة التهديد . أما المناطق التي احتلها بالقوة العسكرية فهي: احتلال المرسى الكبير 1505. احتلال وهران 1509. احتلال بجاية 1510.

بعدما خضعت المدن السابقة الذكر إلى الاحتلال العسكري، تعرضت مدن أخرى وإمارات إلى نفس المصير إذ وجدت نفسها مجبرة على توقيع معاهدات الولاء للأسبان نذكرها فيما يلي: مدينة تنس سنة 1508، مدينة الجزائر سنة 1510، مستغانم سنة 1511، مملكة تلمسان سنة 1511.

إلى جانب ذلك شن الإسبان حملات على بعض المدن الساحلية، ولكنهم فشلوا في احتلالها ، أو البقاء فيها لمدة أطول، رغم دخولهم إليها وهي : فشلهم في احتلال شرشال 1531 ، احتلال مدينة هنين سنة 1531، ثم انسحابهم منها سنة 1534 بعد تخريبها، فشل

الأسبان في الاحتفاظ بمدينة عنابة إثر احتلالها سنة 1535 ، ولم يمكث الجنود الأسبان بعنابة إلا خمسة أعوام فقط حيث تمكنت القوات الجزائرية من محاصرتهم ، وأجبرتهم على الانسحاب سنة 1540. وقد جاء رد الإمبراطور شارل الخامس سريعا لضرب مدينة الجزائر في السنة الموالية حيث قام بحملة شارلكان على مدينة الجزائر 1541 لكنه اضطر إلى الانسحاب وتعود أسباب ذلك إلى :

1 - استصغار الإمبراطور بشأن الجزائر واعتقاده بتحقيق النصر نظرا لطبيعة القوة العسكرية التي جاء بها.

2 - حسن قيادة حسن آغا وشجاعته في العمل على رد العدوان ، فلم يترك السكان يستسلمون لليأس . وذكر أنه قد ركب حصانه وطاف في المدينة يشجعهم. وقد استجابوا للأمر فصمدوا وتضامنوا أمام أعدائهم .

3 - فعل الزوبعة البحرية التي أتت على تحطيم 150 سفينة من أحجام مختلفة كانت راسية في البحر ، أو غرقت.

فشل الأسبان في احتلال مستغانم (1543-1558): حيث وجهوا ضدها ثلاث حملات، في سنوات 1543 و 1547 و 1568. ولكنها كلها انتهت بالفشل، بل تم في الحملة الثالثة قتل قائد الحملة الكونت دالكوديت حاكم وهران سنة 1558.

و فشل الإسبان كذلك في احتلال مدينة الجزائر 1567 إثر حملة قادها خوان غاسكون. وفي بداية القرن الـ17 فشل الإسبان في مخططهم لاحتلال الجزائر سنة 1601، كان أعدها أعدها جاسوس فرنسي يدعى روكس (Roux). وخلال القرن الثامن فقد أعاد الإسبان احتلال مدينة وهران 1732 ، بعدما سبق وأن حررها الباي بوشلاغم سنة 1708. وفي أواخر القرن الثامن عشر وجه الإسبان على مدينة الجزائر ثلاث حملات ، لكن في كل مرة كانوا يرجعون منهزمين . وتتمثل هذه الحملات في حملة أوريللي سنة 1775، وحملة أونطونيو بارثيللو في سنتي 1783، 1784 على التوالي .

3- المد العثماني إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط:

أخذ السلطان سليم الأول على عاتقه مهمة بناء قوة بحرية تتولى انتزاع السيادة البحرية من الدول الأوروبية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وقد عاصرت مشروعات الدولة العثمانية في هذه المنطقة ظهور حركة عامة بين قادة البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانئهم وسواحلهم من الأطماع الأوروبية ، والعمل على تأمين وصول المهاجرين العرب من الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1492.

ومن أبرز أولئك القادة البحاران عروج بن يعقوب وأخيه خير الدين اللذان كانا لديهما ينشط في البحر المتوسط ، وكان عروج منذ سنة 1510 يتولى إدارة جزيرة جربة الواقعة شرقي تونس بموافقة السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد بن الحسن 1494 – 1526 خمس الغنائم التي يحصل عليها من نشاطه البحري. وكان الأخوان يوجهان جزءا من نشاطها العمل على إنقاذ الاندلسيين ونقلهم إلى السواحل المغرب العربي ، فقد تمكنا من إنقاذ الآلاف منهم. وإثر احتلال الإسبان لمدينة بجاية اتجهت أنظار سكانها إلى عروج وأخيه خير الدين لإنقاذهما ، وقد لبي الأخوان الدعوة ، فقاما بعد محاولات، لكنهما أخفقا

في تحريرها بسبب مناعة حصونها. ثم انتقلا مدينة جيجل وأصبحت مركزا لنشاطهما منذ سنة 1514.

قرر عروج توجيه جهوده نحو تحرير ميناء الجزائر بعدما تسلم رسائل استغاثة من بعض الأهالي ، منها رسالة الشيخ ابو العباس بن احمد قاضي . ثم اتصل عروج بأخيه خير الدين الذي كان في تونس، فخرج خير الدين ومعه 21 سفينة تحمل 1500 مقاتل ، أما عروج فقد غادر جيجل على رأس قوة برية من 800 مقاتل، وجند في طريقه 5000 شخص من أفراد القبائل وذلك في سنة 1516. أدرك الاسبان أن قوات عروج أصبح يشكل تهديدا خطيرا لوجودهم في المنطقة ، فنجحت القوة الاسبانية في القضاء عليه سنة 1518 في معركة بين وهران وتلمسان.

أدرك خير الدين خطورة الاسبان بعد مقتل أخيه عروج ، أرسل بعثة إلى استانبول برئاسة أبو العباس بن احمد بن قاضي لطلب الدعم العثماني. استقبلت البعثة بحفاوة كبيرة من قبل السلطان ، الذي قبل هديتهم ، واطلع على خطابهم وطلبهم المتعلق بطلب الحماية ، أدرك سليم الأول الأهمية الإستراتيجية ، التي تحتلها بلادهم وسائر السواحل المغربية المطلة على البحر المتوسط ، بالنسبة لتوسيع نشاط البحرية الإسلامية في هذه المنطقة ، والذود عن حمى المسلمين. وبناء على تلك الاعتبارات وافق السلطان على طلبهم ، وأثناء عودتهم ؛ أرسل معهم راية ، وخطابا إلى أهل مدينة الجزائر يعلمهم فيه أنهم أصبحوا ممن تشملهم عنايته ، كما أرسل معهم بعض قطع المدفعية ، وكميات من الذخيرة الحربية، بالإضافة إلى ألفي جندي ببنادقهم ، كما رخص بانتقال المتطوعين إلى الجزائر. فاستجاب لنداء السلطان أربعة آلاف متطوع ، الذين التحقوا بالجزائر. كما منح السلطان خير الدين لقب "بايلر باي " أي أمير الأمراء. وهكذا أصدر السلطان فرمانا يضع حمايته على الجزائر بطلب من الجزائريين أنفسهم ، وذلك في سنة 1519 ، أي بعد حملة مونكادي ضد الجزائر . وهكذا أصبحت الجزائر تعيش منذ هذه الفترة عهدا جديدا في كنف مساندة القوة العثمانية . وقد نجح خير الدين في تحرير قلعة البينون يوم 27 ماي سنة 1529 بعد ضربه عليها، وبذلك خلص مدينة الجزائر من نيران المدفعية الاسبانية التي كانت تسلط عليها من هذه القلعة التي لم تكن تبعد عن المدينة أكثر من 300 متر .

تونس:

فقد استدعي السلطان سليمان القانوني خير الدين باربروس إلى استانبول ليتفق معه حول الاجراءات التي يمكن اتخاذها لإيقاف الزحف الأوربي والعمل على تثبيت أقدام العثمانيين في الغرب العربي كجزء من عملية توسعهم في الوطن العربي. قام خير الدين باعادة بناء الاسطول الجزائري ، واستعد لاقتحام تونس وضمان حرية التنقل بين شواطئ البحر المتوسط ، وفي 18 نيسان سنة 1534 استولى بسهولة على مدينة تونس بعد ان اغتتم الثورة التي نشبت فيها ضد حاكمها أبي محمد الحسن الحفصي

حليف الاسبان. وسرعان ما استتجد الحسن بالاسبان الذين هرعوا إلى تجميع اسطولهم في جوان سنة 1535 أمام ساحل سردينا والتوجه نحو تونس والاصطدام مع قوات خير الدين ومحاصرتها، عندئذ اضطر خير الدين للانسحاب إلى ميناء عنابة ثم إلى ميناء الجزائر، أما الاسبان فقد احتلوا مدينة تونس يوم 21 تموز 1535 وأعادوا الحسن إلى عرشه بعد أن عقدوا معه اتفاقا ضمن لهم مصالحهم وكان من أبرز بنود الاتفاق. وقد ظلت تونس تحت السيطرة الإسبانية إلى غاية سنة 1574، حيث تم تحريرها وأصبحت ولاية عثمانية.

ليبيا:

لقد قام الاسبان باحتلال لميناء طرابلس في سنة 1510، وفي سنة 1535 سلمت إلى فرسان القديس يوحنا بعد ان اشترطوا عليهم الدفاع عنهم ضد المسلمين ، وكان هذا التسليم ضمن اتفاقية طالب فيها الفرسان من شارل الخامس تسليم مالطة لتكون قاعدة لهم يغزون منها البلاد الإسلامية. وفي أعقاب تولي خير الدين قيادة الاسطول العثماني سنة 1533 وضع خطة للاستيلاء على طرابلس ، إلا ان التدخل الأسباني في سنة 1535 أدى إلى فشل الخطة ، وفي 18 سبتمبر سنة 1551 نجحت السفن العثمانية التي تجمعت في شرق البحر المتوسط ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية. أما إقليم برقة فقد كان تحت السيطرة العثمانية منذ الاستيلاء على مصر وقد أعلن زعماء إقليم فزان من أسرة بني محمد ولاءهم للعثمانيين. تولى حكم ليبيا عدد من الولاة العثمانيين من أهمهم درغوث باشا ، الذي وسع السيطرة العثمانية لتشمل السواحل الليبية بكاملها، كما أنشأ فرق الانكشارية هناك على أن اهتمام العثمانيين بليبيا ظل عسكريا بالدرجة الأولى واقتصر نفوذهم على المدن الساحلية .

المغرب

أما المغرب فقد ظلت بعيدة عن متناول العثمانيين وحكمهم المباشر وذلك بسبب تنامي قوة الدولة السعدية الناشئة منذ منتصف القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها القادة العثمانيون لإخضاعها ، إلا أن ذلك لم يتحقق لسببين مهمين:

1: النصر الكبير الذي حققه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة 1578 الذي جعلهم محط تقدير السلطان العثماني ورغبته في إيقاف الحملات الموجهة ضد مراكش .

2: ظهور شخصية المنصور السعدي الذي سعى للمحافظة على استقلال المغرب وعدم الخضوع للسيطرة العثمانية.

